روايات عالمية

من الشرق والغرب





إهـــــــداء2006

الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر

الإسكندرية

روايات عالمية

العدد رقم ٢٦٧

الابن

للكاتب الفرنسى الكبير :

چورچ سيمنون

تعريب

الرائد : حسن محمد أحمد



الفصل الأول

« ولدى »

هل ياترى ستتبسم حين تقرأ هذه الكلمة وتشعر بمدى حيرتى واضطرابى وأنا أكتبها لك ؟. فمنذ سنوات طويلة لم أسطر لك حرفا ، اظنه منذ كنت طفلا ترحل بعيدا عنى فى رفقة والدتك فى عطلاتك الدراسية وتضطرنى أعمالى للبقاء فى مكتبى ، وكنت أخصك وقت ذاك بسطر أو سطرين أبدؤهما عادة بكلمة « بنى » وأحيانا « طفلى » أو فتاى الصغير ، ولكنى أرى ان كلمة « ولدى » تحمل فى معناها وبين ثناياها كل الحب والقوة والاعزاز ، ومع ذلك فهى تبعث فى نفسى احساسا من الكآبة والحزن ، وكأنى أكتب وصيتى !

ومهما كان الأمر فلا مفر لى من ان أبدأ رسالتى بطريقة ما ، وانى لأشعر الآن بمثل ما كنت أشعر به حين كنت أدخل عليك غرفتك فألقاك غارقا بين كراساتك وكتبك ، فأقف مترددا لحظات متهيبا كأنى فى محراب ، ثم اجلس على طرف فراشك وفى النهاية أتشاغل باشعال احدى سجائرى .

ولعل أكثر مايضايقنى أنى لا أعلم - يقينا - متى ستقرأ خطابى هذا ، أو ما عساك تشعر به وقتئذ ، ولا أخفى عنك انى طالما فكرت فى بادىء الحال فى أن اتحدث اليك بنفسى ، ولذلك كنت أحضر الى غرفتك فى الفترة مابين عشائك وأوبتك لفراشك ، ولكن صدقنى يا ولدى ، كانت الكلمات تحتبس فى حلقى فأظل جالسا على حرف سريرك اتأملك بقلبى قبل عينى ، وانت مكب على كتابك معللا نفسى بالصبر حتى ترفع رأسك وتلتفت نحوى قليلا وأنت تغمغم فى شرود . « ايه ! وكيف الأحوال ؟» .

لم يكن بيننا الكثير مما يقال ، وفى الواقع لم نكن نشعر بحاجة لتبادل أى حديث ، ولا أعلم هل كان سبب ذلك تحفظ كلينا فى علاقته بالآخر ، أو بعده عنه بقلبه وافكاره ؟.

وعلى أية حال فلاشك أن الكتابة اليك أيسر شأنا من الحديث معك ؛ ففى وسعك أن تعيد القراءة مرات ومرات ، فتكتشف فى كل مرة آفاقا جديدة تساعدك على العثور على اجابات لتلك الأحاجى

التى كانت تحيرك من حين لآخر ، وان كانت ماتزال كلها أو بعضها على الأقل تسبب لى كثيرا من الآلام والقلق والأحلام المزعجة !.

حاولت - كما ذكرت لك - مفاتحتك بالحديث ، وبالتحديد منذ الثالث والعشرين من أكتوبر صبيحة يوم دفن والدى .. بل اننى لا أزال أذكر تلك اللحظة التى اتخذت فيها قرارى المذكور .

كان ذلك فى كنيسة « لوفيسينيه » حين كنا نقف جنبا الى جنب فى الصف الأمامى على يمين التابوت الكبير ، وصوت الأرغن يداعب أوتار القلوب ويشنف الأسماع ، ووالدتك تقف مع شقيقتى أمام الهيكل ، وباقى السيدات ينتظرن فى الخارج مع عمك « بيير فاشيه » .

ولم يكن عدد شهود الصلاة كبيرا : القس وغلامان يرددان الأناشيد ثم ضارب المفرق ، ونحو ثلاثين شخصا تركت اقدامهم الموحلة آثارا فوق الأرض الرخامية الناصعة البياض ، حيث كانت السماء تمطر مدرارا منذ الصباح ، وكنا قد مشينا خلف الجثمان من البيت حتى الكنيسة .

فى تلك اللحظة فقط ، اكتشفت فجأة أنك أطول منى وأرشق قواما فى معطفك الأسود الجديد الأنيق وشعرك المرسل الطويل الذى تعتقد أمك أنه أطول مما يجب ، ووجهك النحيل وقد رفعته شامخا بأنفك فى تحد للناس أجمعين ، ومن عينيك المثبتتين للأمام ، كانت تنبعث نظرات قوية .

ترى كم مرة فى حياتك دخلت فيها بيتا من بيوت الله ؟ وهل تشعر فى نفسك برهبة حينما تشهد تلك الطقوس الدينية التى تجرى أمامك ؟

لقد وقفنا معا فى ذلك المكان المقدس فى مرة سابقة تشابه مثل هذه الظروف تماما ، ولكن قبلها ببضعة شهور وفى الثالث والعشرين من يناير الماضى « اليوم نفسه من الشهر ، اليس هذا عجيبا ؟ » وكان ذلك بمناسبة وفاة أمى - جدتك - وزوجة الرجل الذى يرقد الآن فى الصندوق تحت الغطاء الأسود ذى الصليب الفضى .

ولم أكن - حينما وارينا جثمان جدتك بالثرى - قد ألقيت اليك انتباها ، اذ كنت أظنك مجرد طفل - برغم تجاوزك عامك

السادس عشر ؟ ولكنى وقد رمقتك بطرف عينى الآن شعرت بأن من كان يقف بجانبى رجل رشيد زكى القلب دقيق الملاحظة يسجل كل شىء ، فى ذاكرته .

وحين كنت تأتى معى الى « قصر ماجالى » كنت تنقل بصرك فى ارجائه دون أن تنبس حرفا ، ذلك القصر العتيق الذى عاش فيه ابواى . والذى لن يسكنه أحد من بعدهما ، ولن تعود لنا به صلة بعد الآن ، كنت المحك وكأنك ترسم فى ذاكرتك أدق التفصيلات .

وقد استمعت خلال الأيام القليلة الماضية الى ما كان يدور من الحوار والنقاش العائلى فى أمور الجنازة دون ان تفتح فاك بكلمة وقد ارتسم الضيق والملل على محياك وبك رغبة ملحة فى ان تنتهى من ذلك الأمر المكروه سريعا .

كذلك كنت اتأملك طوال الشهور الماضية حين كنت ادعوك أيام الآحاد لمرافقتى فى زيارة قصيرة لجدك حيث تمضى معه بضع لحظات قد تشيع فى نفسه الرضا والسرور ، فكنت أقرأ فى ملامحك معانى الرفض والضيق ثم فى النهاية كنت تأتى معى بغير حماس أو رغبة صادقة .

انا لا الومك مطلقا يا بنى ، واظننى افهم شعورك .

ولكن ثمة حقائق كثيرة أود أن تعرفها لمصلحتك ومصلحتى ؟ كذلك لمصلحته هو ، ذلك الرجل الذى يرقد فى الصندوق والذى شيعناه منذ قليل ومعك عمك فاشيه حتى المقابر .

وليس مجرد الشعور بالحرج هو الذى منعنى من ان أصارحك بها شفاها بنفسى ، فقد رأيت أن الحكمة تقتضى أن اتريث بعض الوقت قبل ان أفاجئك بها ، « ولا أدرى متى يطول انتظارك وانتظارى ! » ، ومن ثم رأيت أن الأفضل ان اكتب كل ما فى قلبى بين هذه السطور ، وستبقى مكانها حتى تقرأها وقد أصبحت زوجا وابا وتتخذ بنفسك قراراتك دون أى تدخل أو تأثير متحملا كل التبعات والمسئوليات .

اذن ، فمن الجائز أن يقرأ جان بول ـ ابن السادسة عشرة هذه الكلمات ، كذلك من المحتمل جدا أن يقرأها نفس الشخص وقد غدا رجلا جليل المكانة ، وخط الشيب شعره ، مهيب الطلعة فى

الثلاثين او الأربعين من عمره ، أو ربما فى مثل سنى ـ ازداد بالحياة خبرة وبتصرفات الزمن علما ، سأتركها لك لتقرأها بعد وفاتى ، ولا أظن أنك ستنتظر طويلا ، فلن ابلغ أبدا ما وصلت اليه أمى العجوز التى عاشت احدى وثمانين سنة او أبى الشيخ الذى مكث حتى السابعة والسبعين .

لا تبتئس ؛ فأنا لا أحاول استدرار عاطفتك ، فالموت حق ؟ ونحن آل فرسوا لانخشاه أبدا ، بل على النقيض اننى ابتسم حينما اتخيلك فى مثل عمرى ، تتحمل الهموم وتفكر فى ابنك الذى سيرث اسمك ، وفيما عساك أن تحكم به على أبيك وجدك .

***

ولا تدهش اذا بدأت حديثى معك عن الحاضر ،قبل ان اغوص بك فى أعماق الماضى وهو لب الموضوع ، فاذا كنت تسأم ذلك لأن هذا الحاضر هو الذى تعيش فيه ، وتعتقد ـ كما أعتقد أنا ـ أنك تعرفه كما تعرف ما فى راحة يدك ـ فانه سوف يلقى شعاعا من نور على ذلك القديم ، فيجعلك أصدق حكما وأصوب فهما .

***

ان عائلتك لتتألف اليوم منك ووالدتك وشقيقتى آرليت وزوجها فاشيه ، وقبل شهور ستة كان هناك أيضا جدتك وجدك، واكبر الظن أن كلا منهما قد ترك فى نفسك آثرا يختلف عن الآخرين ، وكان بودى ان أعرف رأيك فى كل فرد منا : فى جدك ، فى أمك ، او فى أنا شخصيا ، واى فكرة يا ترى قد كونتها عنى كما ترانى ويرانى الناس .. ثم بعد أن اقص عليك وقائع هذه القصة ؟

ولقد كانت اسرتى أقل من اسرتك عددا ، لم تزد قط على أبى وأمى وشقيقتى ، ثم بعض الأقارب منهم أحياء انقطعت صلاتهم بنا او اموات تحت الثرى فى الرموس!

ولست ادرى تماما متى اكتشفت حقيقتى فى تلك المجموعة ، فاذا بى لست الا قطعة من محرك ضخم يدور باستمرار على من الأجيال والسنين ، غصنا رفيعا فى شجرة ضخمة تمتد جذورهافى الأعماق ثابتة راسخة ، تذوى غصونها بتغير الفصول ، ولا تلبث

حتى تنبت لها براعم جديدة تأخذ دورها الجديد فى الحياة !وهكذا يخلف الأبناء الآباء والأجداد وتبقى الأسرة العريقة على مر الزمان ولا جديد تحت الشمس الا الأسماء والوجوه ، وهكذا أيضا كان جدك ، وقبله أبوه ، ثم أنا وأنت ، وابناؤك من بعدك الذين سينجبون لك حفدة والمحرك الضخم يدور مادارت الدنيا حول نفسها !

والآباء لا يعيشون الا من أجل أبنائهم ..

وأعتقد أن عينى تفتحتا على تلك الحقيقة وأنا فى العشرين من عمرى ، فى وقت يعاصر تلك الأحداث الهامة التى سوف أرويها لك فيما بعد ..

ولعلك قد أنصت مذهولا لتلك المناقشة الحادة التى دارت بينى وبين فاشيه زوج عمتك ليلة وفاة جدك ، وكنت أرمقك فى انتباه لأعرف صدى ذلك فى نفسك ، وفى أى جانب منا تقف ؟ ولكنك اكتفيت بالصمت .

فقد كان جدك ــ ومنذ بداية هذا القرن ــ منكرا لكل دين سماوى وكل الناس يعرفون عنه ذلك . مكتفيا بالانتماء الى أحد المحافل الماسونية ، ولذلك لم أر كاهنا أو قسا يدخل دارنا قط ، ولم أتلق فى طفولتى أو صباى حرفا من أى كتاب مقدس وماوطئت قدماى عتبة أى معبد أو كنيسة ، وكذلك نشأت أنت ، وفى الوقت نفسه لا أذكر أننى سمعت قط أحدا فى بيتنا يتحدث او يتناقش فى الدين أو يهاجم أحدا فى معتقداته .

وكانت جدتك كذلك أيضا حتى قبل العام الأخير من وفاتها . اذ فوجئنا جميعا وقد أصبحت كاثوليكية متعصبة ، وأوصت فى الحاف شديد أن يقام لجثمانها بعد وفاتها طقوس دينية كاملة ..

ولم تكن أنت موجودا لترى غضبة « فاشيه » الكبرى ، حينما لاحظ أنهم يعدون احدى غرف القصر فى « لوفيسينيه » ليبيت فيها جثمان جدتك بين الصلبان والشموع ، اذ لم يكن فى البيت غرف معدة لذلك ، فثارت ثورته لما شاهد أمى راقدة مغمضة العينين ملثمة الفكين تطبق أصابها المتخشبة على المسبحة وفوق صدرها الصليب ، فصاح محتجا رافعا يده فى وجه أبى مهددا :

ــ أو سمحت للقس بأن يطأ عتبة هذا البيت ؟

ولقد ارتج على جدك ، وامتقع لونه وهو الذى كان برغم بلوغه السابعة والسبعين ما يزال مشدود القـــامة مرفوع الراس ..
ارتج عليه ولم يجد جوابا .

فنظر نحوى فى حيرة كأنه يستلهم المعونة ، فواجهت فاشيه واجبته فى حزم :
ـ هذا ما اوصت به أمى قبل وفاتها ، ولابد لأبى أن يحقق لها رغبتها الأخيرة !
وزأر فاشيه كالأسد الجزع :
ـ الا يدرك هو انه بذلك التصرف يجعلنا اضحوكة بين الناس؟
« ولم يكن هو الا أبى » ..
وكان فاشيه مايزال هو ذلك الشاب الأصفر النحيـــل الذى خطب شقيقتى فى أحد الأيام ، لم يتغير شىء فى شـكله أو وزنـه درهما واحدا برغم مرور الشهور والأعوام ، وكان فى ذلك الوقت رئيسا للكتبة فى مقاطعة « شارنتى » التى كان جدك حاكما عامالها بيد انى ســأعود اليك مرة أخرى .. أما الآن فهو من الأعـلام المشهورين ممن يشار اليهم بالبنان ، ويحتل مركزا رفيعا اكسبه ثقة فى النفس وعنادا فى الطبع ربما وصل الى حد القحة ! يكادمن ينظر اليه وهو يتحدث بتلك اللهجة ليلة وفاة أمى يظن أن أسرتنـا لا تتكون الا منه فقط ، وكأنه صاحب الحق وحده ، فى التحـدث بلسانها والتصرف فى شئونها وانه المسئول عن الحفـــاظ على كرامتها وهيبتها !
ـ « أما كفاكم ما فعلتم ، كلكم للاساءة الى سمعتى واسمى؟» .
ولقد كرر ـ بعد ذلك بستة شهور ـ تلك العبــارة أمامك ؟ فقطبت جبينك دهشة مما جعلنى مضطرا لأن اذكر ما حدث فى المرة الاولى ، ولابد أنك فكرت طويلا فى معنـاها ، ما لم يكن هو أو شقيقتى ارليت أوهما معا قد ذكرا لك شيئا دون علمى .
ولم يتمكن برغم عنـاده ، من الحيلولة دون حضور شقيقتى للصلاة على جثمان أمها فى الكنيسة ، لكنه ظل جالسا فى سيارته فى الخارج وأمام الناس على قارعة الطريق !.
ولقد تكرر ذلك المشهد بعد وفاة أبى ، ولكنى تحملت وحدى

المسئولية كاملة رغم أن أبى لم يطلب منى قط أن تقام له جنازة دينية ، فلم يحدث بيننا خلال تلك الشهور القليلة أو طوال حياتى أى حديث فى الدين أو الفلسفة السياسية .

كان يعيش فى الفترة من يناير حتى أكتوبر وحيدا فى (لوفيسينيه) ، تقوم بخدمته عجوز تحضر فى الصباح لتعد له طعامه وفراشه ، ثم تنصرف الى بيتها وزوجها كل مساء .

أتراك تدرك معنى الفراغ والوحدة لرجل مسن فى بيت كبير متعدد الحجرات ، وكان فى وقت ما يشغل منصبا خطيرا ترمقه الأبصار وتنحنى له الهامات وترمقه العيون فى اجلال واحترام ؟

ولعلك لم تتأثر بوفاة ذلك الرجل كما لم تتأثر بوفاة زوجته فى أثناء اشتغالك بامتحان الشهادة الثانوية ، لأنك كنت قليل الاختلاط بهما ، والزيارات النادرة التى كنت تصحبنى فيها لرؤية جدك الشيخ كانت تسبب لك صداعا ومللا : فالقصر فى ذاته لم يعد يلائم جيلك الحاضر ، والذكريات التى اعتدت أن أجعلها موضوع حديثى مع جدك فى حضورك لم تكن تثيرك او تهمك ، ثم أنه قلما كان يوجه اليك خطابا ، وربما تعجبت من ذلك وساءك الا يعيرك انتباها ، لكنه كان يختلس النظر اليك بطرف عينه ، ثم ينظر نحوى ، فهل خطر ببالك ماذا كان يعنيه بتلك النظرات ؟

ومع ذلك فقد كان من واجبى أن أجعله يراك ، وكنت أعلم أنه يشعر بالسرور العميق لذلك ، وبعد فترة كنت أنظر فى ساعتى واقول لك مموها :

ـ أما قلت لى أنك ستقابل بعض أصدقائك فى الخامسة ؟

ولم أكن أعرف شيئا عن أصدقائك أو مواعيدك ـ وليس ذلك عتابا ـ فكنت تقف خجلا مستأذنا فى الانصراف وتمد يدك فى ارتباك قائلا :

ـ الى اللقاء يا جدى .

وكان يجيبك كما اعتاد أن يجيبنى وكما افعل معك الآن :

ـ الى اللقاء يا ولدى .

والقبلات لا تعرفها أسرة لافرنسوا حتى فى طفولتى كنت أطيع إكارها شبح قبلة على خد أبى وأمى ثم انصرف مستاء .

وكنا نرقبك وأنت تنصرف ولعلك توهمت انى اعجل فى انصرافك لتخلى لى المكان لنتبادل حديثا لا تحب أن تسمعه ولكنك تخطىء فى ذلك ، فالذى كان يحدث بينى وبين ابى هو الشىءالذى يحدث بيننا ــ حين ادخل غرفتك واجلس على طرف فراشك مفكرا . هكذا اعتدنا أن نجلس معا بين الظلال وكل منا غارق فى افكاره ، وحين نتعب من طول الصمت يقطعه احدنا فيتحدث عن كتاب أو حادث ما أو عن شخص يعرفه كلانا او عن الدواء الذى كان ابى ــ خلال شهوره الاخيرة ــ يتناول منه انواعا كثيرة .

بيد أننا لم نتحدث عن جدتك ، أو عن « لاروشيل» أو من اقام فيها من الناس ؛ أو ما وقع من الحوادث فى عام ١٩٢٨ .

ولعلك تظن أن حينا من الدهر قد انقضى منذ ذلك الوقت ؟ فأنت نفسك لم تظهر فى الوجود الا عام ١٩٤٠ وهو عام من المؤكد أنه قسم التاريخ قسمين .

ولكن يخيل الى أن تلك السنة قد انتهت بالأمس فقط ، فالسنوات تمضى سراعا حتى لارتاب فى انى حقيقة قد بلغت الثامنة والاربعين من عمرى ، وفى أن من واجبى ــ سواء رضيت أم أبيت ــ أن أبذل التضحيات التى بذلها ابى نحوى .

وبعد فمن يدرى ؟ ربما شاءت المقادير أيضا أن أشهد نهايتى فى ذلك القصر القديم فى «لوفيسينه» لولا اصرار شقيقتى وزوجها ــ لافتقارهما الدائم للمال ــ على بيعه .

لا تنزعج فأنا احدس ما يدور ببالك ، ولست حزينا على فقده ؛ بل ما أردت أن أشير اليه انما هو كناية عن رغبتى فى أن أقول لك : ربما اضطررت يا ولدى يوما ما الى أن تجذب ابنك الصغير من يده ليزور اباك المتقاعد الذى اشتد به الهرم وهو كاره لزيارتى !

ابتسم ايها الصغير ، واقسم لك أن حديثى اليك لن يكون بعدئذ كئيبا أو حزينا !.

ولكن ينبغى أولا أن انتهى من موضوع الوفاة والجناز ، ولست أجد تفسيرا لما يعتمل فى نفسى من القلق بخصوصها ، حقا كان ابى ينكر الاديان جميعها ، انحدر من اسرة عريقة ريفية وادى للدولة بخدمات جليلة ، فهل كان من البنائين الاحرار ، لست واثقا من

ذلك . ولولا عمك فاشيه ما خطر ببالي شيء من ذلك ، فقد اشار لي مؤكدا انه كان يشغل مركزا هاما فى الطائفة الماسونية ، وان المحفل قد ساعده عام ١٩٢٨ وخفف من هول المصيبة التى وقعت آن ذاك .

وأعود فأكرر انه لم يصارحني حتى وفاته بأية رغبة اخيرة يطلب مني تحقيقها .

واذا كنت قد أدخلت جثمانه الى الكنيسة فذلك لأنى توهمت أنه كان يتمنى ذلك ويرغب فيه من صميم قلبه وأن لم يظهره على لسانه ، اما ان كنت مخطئا في ظني فأنا التمس منه الصفح والمعذرة .

هذا عن جدك ، أما عن جدتك فلا أجد فى نفسى الشجاعة لأسألك عما تذكره فى طفولتك عنها ، ولم يقع بصرك عليها الا وهي جثة بطيئة الحركة متورمة الجسم ، هدها مرض الاستسقاء ، وملأ ساقيها بالماء وفى عينيها نظرة غريبة بلهاء!

لم تأت لرؤيتك عند ولادتك ، فقد كانت تلازم البيت لمرضها ، فحملناك اليها بعد شهر من ولادتك حتى تراك .. وكان فى يوم احد من أبريل ، طقسه جميل رائع وشمسه دافئة ساطعة ، وكنت قد وصلت ومعي أمك توا من باريس فهبطنا المحطة الجميلة واخترقنا حديقة قصر ماجالي اليانعة الزهور والتى تصدح فيها الطيور ، ولكنا ما كدنا ندلف الى الداخل ، داخل تلك الفرقةالكئيبة المظلمة ذات السقف المنخفض ، والتى اعتاد أبواى الجلوس فيها بجوار المدفأة العتيقة التى تتصاعد رائحة دخانها فيزهقالأنفاس حتى شعرنا بأننا تركنا الحياة وراءنا فى الحديقة ، وأننا نطأ عتبة عالم آخر ! مقبرة عفنة يخيم عليها شبح الموت الرهيب !.

وقال أبى مخاطبا امى التى كانت تجلس فى مقعد كبير ذى ذراعين :

ـ هذا هو حفيدك جان بول!

فنظرت نحوى تحدجني بعينين جامدتين ، ولم يشرق وجهها حتى بشبح ابتسامة ! ومدت ذراعيها فى صمت ، وفى تلك اللحظة لمحت الفزع والتردد واضحا على أمكالتى نظرت نحوىمستفسرة.

وامسكت انا انفاسى خشية ان تفلت كتلة اللحم الصغيرة التى هى أنت ، من بين يديها البطيئتى الحركة بسبب اعيائها وضعفها .

ولكن امك كانت تفكر بطريقة اخرى ، لعلنى كنت اشاركها فيها بنصيب ، فقد خشينا أن تحل بك اللعنة يا ولدى ونحن نسلمك يامن تمثل الأمل والمستقبل الى يد الفناء والشيخوخة والهرم !.
ومعذرة اذا اعترفت لك بأنه قد ضايقنى حين ذاك أن أرى تلك السيدة التى كانت سبب وجودى،وارضعتنى لبن ثدييها وحملتنى بين ذراعيها .. تنحنى فوق وجهك الوردى الصغير ، وفوق شفتيك الجميلتين الطاهرتين اللتين لم يلمسهما انسان حتى يلوثهما بانفاسه الحارة !

ثم لم تعرك بعد ذلك اهتماما ، وعندما تعلمت المشى وكنت تدرج مع بعض الأطفال فى الحديقة فتتعثر وتسقط . كنت تسبب لها رعبا شديدا كلما صرخت او بكيت بصوت مرتفع ، فقد كانت اقل الاصوات تسبب لها خوفا وانزعاجا .
وكان أبى يكبرها بأربعة اعوام فقط ، فارق بسيط ربما لا يلحظه من فى عمرك ، ولا يلحظه اى انسان بين رجل وزوجته بلغا هذا القدر من الشيخوخة .

ولابد انه من بين تلك الذكريات المحفورة فى ذهنك عن «لوفيسينيه» ، صورة جدتك وهى فى مقعدها الكبير بجوار المدفأة، مكانها الذى لم يتغير قط ، وربما عجبت فى نفسك من أنها لا تؤدى أى عمل فى الدار ، حتى غزل الصوف او التطريز الذى اعتادت كل امرأة أن تشغل نفسها به ، ولم تكن تقرأ أيضا وليس فى الدار مذياع ، فكانت تجلس ساكنة فى مقعدها عيناها مشدودتان الى الأمام ، لاتنبس بأى حرف فاذا ما سقطت احدى الجمرات المشتعلة من المدفأة فوق السجادة لم تكلف نفسها عناء الانحناء والتقاطها !

واذكر أن أبى كان ــ ذات يوم ــ خارج البيت فى مهمة عاجلة ، وكانت مدام برين قد انتهت من عملها وانصرفت لمنزلها ، وحين عاد وجد قطعة خشب مشتعلة سقطت من المدفأة فأحرقت دائرة

متسعة من خشب الأرض، هذا وأمى جالسة ساكنة تنظر فى بلاهة كأن الأمر لا يعنيها !

اتكره أن تكون مثل هذه العجوز المسكينة جدتك ؟

وما قولك لو علمت أنها كانت فى شبابها مثال الحيوية والنشاط تمضى معظم عطلاتها ونزهاتها فى الحديقة التى كنت تلعب فيها فى صباك ، وقت ذاك كانت جدتك احدى بطلات الكروكيت، تتردد ضحكاتها المرحة بين أرجاء القصر ، لقد ذكرتنى أنت بذلك حينما عثرت منذ أيام على مضرب صدىء من الحديد فى الحديقة، وسألتنى ماذا يكون ؟.

ولم يكن قصر ماجالى ـ كما تراه الآن كئيبا حزينا مظلما ، ولقد شاهدته بنفسى فى طفولتى ، كان يا ولدى أجمل بيوت لوفيسينيه، تتلألأ أنواره فى الليل ويقصده صفوة القوم وعظماؤهم فى كل وقت ، وتزخر حديقته على الدوام بالأطفال يلعبون ويتأرجحون ويمرحون ! .

وهكذا حينما كانت جدتك تتخذ مكانها على ذلك المقعد بجوار المدفأة وتجلس ساكنة : كانت تحلم بذلك الماضى البعيد وتنصت فى لذة واهتمام لأصوات مرح الطفولة البرىء الذى تتخيله يملأ أسماعها ، ولم يحاول أبى أن يوقظها من احلامها أو يعيدها لعالم الحقيقة والواقع ، مكتفيا بأن يرعاها ويهتم بتمريضها والعناية بها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة فى هدوء وطمأنينة .

ومنذ عامين ، وكان مسيو لانج الساكن فى البيت المقابل لنا قد توفى وهو فى المعاش منذ وقت طويل ، واستأجر البيت عروسان حديثا الزواج ، تشاجر معهما أبى بسبب ارتفاع صوت مذياعهما ، وكانا يتركان النوافذ مفتوحة على مصاريعها .

وكم كان أبى يتعذب حينما يأتى بعض أطفال الجيرة للعب الكرة فى الفضاء أمام منزلنا ، فكلما صاح أحدهم ـ والله يعلم انهم كانوا دائما يصرخون مثلما كنت تفعل أنت أيام الآحاد ـ ترتعد أمى وتنتفض فزعا كما لو لدغها عقرب ! حتى يضطر الى أن يخرج فيتحدث مع كبيرهم . ولست أعلم ـ على وجه اليقين ـ كيف دار الحديث بين الطفل والشيخ ؟ بيد أنى أعتقد أن الأطفال جميعا كرهوا أبى وأمى من

تلك اللحظة ، ولم يفهموا قط ان الشيخين ينشدان الهدوء وهما يقضيان الأيام الأخيرة من حياتهما ، كذلك لم يخطر ببال تلك العروس التى كانت تخطر دواما فى الشرفات بثوبها القرمزى الحريرى معجبة بشبابها وجمالها أنها ستكون فى أحد الأيام مثل جدتك !

وكثيرا ما كان الأطفال يزحفون كالهنود الحمر ويجذبون الجرس فى عنف ثم يولون الأدبار ضاحكين مسرورين او يلقون القاذورات والأوساخ فى صندوق البريد المعلق على الباب !

فهل شعر بأن وجوده أصبح غير مرغوب فيه بين أبناء هذا الجيل ، وان كل ما يحدث له ليس الا اشارة تنبىء بأن حياته قد آذنت بالنهاية ؟ .

وقبل أن يشل المرض تفكير امى ويقعدها عن الحركة كان يقوم ببعض الأعمال القضائية فى مكتبه الذى لا يبعد كثيرا عن محطة « لوفيسينيه » فقد كان يحمل الدكتوراه فى القانون ويجد سعادة كبيرة فى العمل والسهر على القضايا برغم بلوغه تلك السن الكبيرة، ويتردد كل مساء على مقهى كولونى . وهو مشرب من الطراز القديم له موائد ومفارش ومرايا على الجدران على النمط الأمريكى . وهناك يجلس مع بعض رفاقه من الشيوخ ويلعب دورا أو دورين من « البريدج » فاذا امتد شوط اللعب قليلا بدأ ينظر فى قلق الى ساعة الحائط ، كان يعد الوقت بالثوانى حتى لا يتخلف أبدا عن العودة فى السابعة تماما مهما كانت الظروف ، ففى تلك اللحظة تنصرف مدام برين الى بيتها بعد أن تعد المائدة وتضع الطعام فى الفرن ليظل ساخنا .

وكان هو الذى يقدم الطعام ، ثم يغسل الصحون أيضا ، وتبقى له بعد ذلك ساعة ليقرأ فيها الصحف .

هل تشعر بالسأم حينما أحدثك بكل ذلك ؟ فالاولاد فى سنك يتلهفون على كل ما كان جميلا نظيفا صغيرا فى عمر الربيع ؟ ويمتعضون من كل قديم تقادم عليه الزمن واكل الدهر عليه وشرب؟ بل ربما تمنوا زوال ذلك القذى من امام اعينهم !.

ولكن لا تنس ان ذلك الشيخ المتهالك لم يكن غير جدك ، تجرى

دماؤه في عروقك وتبرز بعض ملامحه وصفاته في محياك ، أبيت أم رضيت !

ولا تحسبني اقول ذلك مدافعا عن ابي ، أو لاخفف من مساوىء الشيخوخة التي تهددني أنا ايضا عما قريب ، فلسوف تزداد عمقا في الفهم حينما أصل في قصتي الى ما حدث في سنة ١٩٢٨ التي هي أصل كل بلاء ، وسبب كل شيء سمعته في (لوفيسينيه) أو في بيتنا في ميدان ماكماهون .

ومنذ خمسة أعوام ـ حينما ازدادت حالة أمي سوءا ـ كف ابي عن الذهاب الى مكتب المحاماة ، كذلك توقف عن السهر في مقهى كولوني ، واكتفى بأن يغيب ساعة او بعض الساعة لشراء الحاجات من السوق ، ومثلها بعد الغروب يتمشى على قدميه حتى لا يمرض أو تتيبس مفاصله اذا كف عن الرياضة .

وظل كذلك . حتى بعد وفاة أمي . لم يغير من عاداته قط ، ولم يمرض قط ، بل لم يشعر طيلة حياته بحاجته الى زيارة اي طبيب ، كان دائما مرفوع الراس نشيط الحركة مشدود القامة كابن العشرين ، يعنى بثيابه واناقته كأنه عريس ليلة الزفاف !

وحينما سألت الطبيب في (لوفيسينيه) عن سبب وفاته ـ فقد وجدناه ذات مساء بمفرده منبطحا على وجهه فوق السجادة بجانب فراشه حيث سقط ـ هز الطبيب كتفيه ونظرالي مليا ثم قال : قتله الحزن !

وكان من عادته أن يدفن الأحزان في قلبه فلا تظهر على وجهه ، ولم تدمع عيناه حينما ودع شريكة حياته ، ولكنه أمسى أكثر رقة وأشد عطفا .

ومما عجبنا له أنه تبنى هريرة صغيرة عثر عليها ضالة في الحديقة ذات صباح تموء جوعا وترتعد بردا فحملها في رفق ، واشترى لها « بزازة » صغيرة ملأها لبنا ومضى يرضعها ويضمها الى صدره في حب وحنان حتى اشتد عودها ، وكانت هذه القطة تسليته الوحيدة حتى قضى نحبه ! .

بيد أن ذلك كله ربما لايفسر سبب كراهيتي لعمك فاشيه أو عدم رضاي عن عمتك آرليت التي كانت تنتهج سياسة عدم

الانحياز الا انها كانت تؤيد زوجها في معارضته اجراء الطقوس الدينية لأبى .

أو ربما كان الفضل لزهره الجرانيوم فى اتخاذى ذلك القرار المفاجىء نحو أبى ! انك لتعرف تلك الزهرة الرائعة التى طالما تناولناها بالحديث ونحن على مائدة الطعام ، والتى كانت تبدو وحيدة فريدة في أصيصها الصغير الجميل فى النافذة المواجهة لنا في ميدان ماكماهون ، وكانت لعانس عجوز استأجرت الغرفة الخشبية العليا فوق السطح ، ومع ان جميع سكان الطوابق الأخرى من الأثرياء ذوى الأسماء المعروفة ، لم نكن نعرف من هى ؟ أو من أين أنت ؟ أو كيف تعيش ، سوى ما أخبرتنا به خادمتنا «اميلى» ذات يوم من أنها تدعى الآنسة أوغسطين .

ولعل مما استرعى أنظارنا الى تلك الزهرة ، انها كانت تطل وحدها على الميدان ، فنوافذ الطوابق والدور جميعها خالية من الزهور ، وكانت تظل فى مكانها أيام الصيف ليلا ونهارا ، ولكن ما تكاد ليالى الشتاء الباردة تبشر بالقدوم حتى تخاف عليها الصقيع وترفعها قبيل الغروب ، ثم تعود فتضعها فى شمس الصباح الدافئة ، وكنا نقول : انظروا ! هذه زهرة الآنسة أوغسطين قد عادت الى النافذة !.

ومن تلك اللحظة شعرت بأن ثمة رابطة خفية بين زهرة اوغسطين وهرة أبى ! .

فكل مخلوق منا يشعر فى وقت ما بحاجته الماسة الشديدة الى شىء يتشبث به فى شيخوخته ويؤنس وحدته ولقد اختارت جدتى فى الدين ملاذا يؤنس وحدتها فى آخر أيامها حتى القبر .

ولا اخفى عنك انني ليلة الصلاة على الجثمان فى الكنيسة قد سحرت بما شاهدته عيناى بين الظلال : المنبر والحواجز الخشبية اللامعة ، واضواء الشموع ورائحة البخور المعطر وثياب المنشدين ، وصوت الترتيل الذى كان يتردد صداه تحت القباب العالية المرتفعة المزينة بالنقوش مختلطا بنغمات الأرغن ودقات الدفوف النحاسية ، حتى التماثيل التى تصور القديسين تبعث فى نفسى الحائرة راحة لم أشعر بمثلها من قبل .

وشيئا فشيئا اختلط كل شىء فى راسى : الهرة وزهرة

الجيرانيوم ؟ وصوت الارغن ورائحة البخـور والتراتيل ، ومنظر القس المهيب ، بعباءته الكهنوتية ، وهو يغمـر أصـــابعه من الماء المقدس .

واختلست نظرة الى ابى فى تلك اللحظة فوجدته مطرقا براسه فى خشوع ، وكأنه يريد أن يخفى عن الناس دمعة وحيدة تترقرق فى مقلتيه ، أو ربما خيل الى ذلك !

الفصل الثانى

قرأت ذات يوم عبـــارة فى كتـــاب ما ، راقتنى ونفذت الى قلبى ، ولست أذكر تمـــاما : هل كان ذلك فى قصة قصـيرة او رواية كبـيرة ، برغم أنى لست مولعـا بقـراءة الـــكثير من ذلك النوع من الأدب ؟ وكانت بقـــدر ما تعيهـــا ذاكرتى « ان أهم لحظة فى حياة الانسان هى التى يموت فيها ابوه ! » .

واستطيع أن أراهن من يشاء بأى شيء دون أن أكون مجازفا على ان هذا الكاتب رجل فى مثل سنى أو أكبر قليلا ، فالنـــاس المتقاربون فى الأعمار يعرف بعضهم بعضا من أفكارهم المشتركة ؟ ولا أخفى عنك أنى تدبرت طويلا فيما تعنيه تلك العبارة حتى وضح لى بجلاء : لماذا كانت وفاة رب الأسرة حدثا جليلا بالنسبة لحيـــاة الابن ؟ ذلك لأنه يجد نفسه وقد أضحى بين عشــية وضحاها رجلا بمعنى الكلمة يتحمل كل تبعات الحياة ومسئولياته !.

***

من لحظات وجيزة ، رايت الدهشة بادية عليك حينما دخلت غرفتى ووجدتنى جالسـا الى مكتبى أسطر هذه الـكلمات وأنا فى ثوب العشـاء ، فقد تسمرت قدماك بالباب وأنت تلقى نظرة خاطفة الى ما امامى من الأوراق .

ـ أوه !. معذرة لم أعرف أنك تعمل .

وقد أجبتك :

ـ لا ، لست مشغولا .

ـ انما كنت أبحث عن علبة سجائر .

وكنت أعلم أنك تستضيف صديقا فى غرفتك ، فقد رايتـــه

حينما دخلت عليك غرفتك منذ ساعة ، فتى أسمر مليح الوجه كث الشعر له عينان سوداوان جميلتان ، وكان يجلس بجوارك وبين يديه كراسة ، وما كاد يراني حتى وثب واقفا في احترام ، وقدمته الي قائلا : صديقي جورج زابو .
ولقد سألته :
ـ أفي « الليسيه كارنو » ايضا ؟ .
فأجابني في صوت موسيقي :
ـ انني اتهيأ لدخول امتحان البكالوريا مثل ابنك .
ثم اردف باسما :
ـ وان لم أكن لسوء الحظ في ذكائه والمعيته ! .
وما كنت قد سمعت بعد أن رفاقك يقدرون فيك ذكاءك ، وربما كانوا على حق ، فقد بلغني أن اساتذتك يرون فيك معالم النبوغ والرغبة الجادة في الدرس والتحصيل ، ومع كل ذلك فاني ـ وأنا ابوك ـ لا أعرف الكثير عنك !
وحتى اصدقاؤك لا اعلم عنهم شيئا ، ماعدا النادر جدا ممن أفاجئه لديك من قبيل المصادفات مثل جورج زابو ، وكنت ألمح معالم اللهفة على وجهك والرغبة الشديدة في انصرافي وعدم اطالة مكوثي معكما .
واستطرد زابو يقول في أدب جم حين رآني ارتدى ثوب العشاء :
ـ معذرة لحضوري في هذا الموعد غير المناسب ، كنت ابحث عن ورقة فيها بعض تمارين الجبر وانا في سبيل مراجعة هذه المادة في بيتنا فلم أجدها ولما كان صديقي جان بول اقرب زملائي الينا ..
ـ اتسكن قريبا منا ؟
واتسعت ابتسامته وهو يجيب :
ـ بل في المنزل الملاصق لكم تماما .
وشعرت كأنما ثمة ما يربطني بهذا الفتى ، ليس اسمه فحسب ولا محياه الوسيم الذي كان يذكرني بشيء جميل حبيب الى نفسي وانما هو احساس غريب خامرني بأني اعرفه منذ وقت طويل .
وحتى لا اسبب لك مزيدا من الضيق انصرفت وانا اقول :
ـ استمرا في دروسكما .

ثم عـــدت الى غرفة الجلوس حيث كانت أمك تعـد كئوس الشراب للضيوف ، ولم يـكن من عادتك أن يحضر ســـهراتنا ؛ ولـكنك كنت تحضرها كارها بناء على اصرار امك ، فتمكث بيننا دقيقة او دقيقتين ثم تفـر هاربا الى المطبخ ، وعندما أردت أن اهديك سترة للعشاء بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر قلت لك:

ـ لابد للانسان أن يتعود حضور العشاء بسترة خاصة وهو في السادسة عشرة ، والا فلن يعرف كيف يرتديها اذا تقدم به العمر !

واجبتنى بأنه ما زال في الوقت متسـع وانك لا تميل الى تقييد نفسك بمثل تلك الشكليات ، وكان الحق معك يا ولدى ؛ فأنا نفسي لا أفعل ذلك الا مضطرا ، ولست أحب تلك السهرات التى أدمنت أمك عليها ، فهى اذا لم تقض المســاء في السينما دعت لدارنا بعض مشاهير القوم مهما كان سبب شهرتهم !

وكان قد حضر لزيارتنا هذا المساء ـ آل ترمبلى ـ وميلدرد وبيتر هوجان اللذان كانا يدعواننا بأسمائنا المجردة على الطريقة الامريكية ، وكذا النائب لانير الذى يعتبر البيت بيته ، وزوجته وابنته ميريل .

وحينما رأتنى أمك سألتنى ـ من أجل ميريل بلا شك ـ :

ـ هل بول هناك ؟ .

ـ معـه صديق يستذكران دروسهما معــا ، ولقد تركتهما للتوى غارقين لآذانهما في الجبر ! .

وبياتريس لانير من أعـز صديقات والدتك وخاصة بعد أن أمسي زوجها المحامى لانير عضوا في البرلـان عقب الانتخـابات الأخيرة ، وكان واضحا لـكل ذى عينين أن ميريل تنصب شباكها حولك ، وأنت عنها غافل .

وحتى اجعلهم يتركونك وشأنك اردفت :

ـ لم اكن أعلم أن له صـديقا يقيم في البيت الملاصق لنا ، بل وفي عامه الدراسي نفسه ! لقـــد رايته فوجدته فتى مهذبا جميلا اسمه جورج زابو .

ورأيت النائب يتبادل نظرة ذات معنى هو وزوجته التى قالت تسأل والدتك :

ـ أتعرفينه يا اليس ؟ .

ـ لم أسمع به من قبل ، ولا أعلم هل بنات اليوم يفعلن ذلك أيضا ؟ ولكن جان بول لم يحدثنى قط عن أصدقائه أو حياته الخاصة .

ـ أنت تعرفين أمه على أية حال «وذكرت اسم احدى ممثلات باريس المشهورات » .

وحينما حضرت الى غرفتى تسأل عن صندوق السجائر سألتك بلا اكتراث :

ـ أتعرف من تكون أمه ؟ .

فأجبتنى ببساطة : نعم ، طبعا .

ولكنك لا تعرف أى حياة مملوءة بالمتناقضات تعيشها صديقك ؟ .

فالملايين من الناس فى كل أرجاء الدنيا يعرفون أمه ويعجبون برشاقة قوامها وملاحة وجهها ، كما يعجبون بفنها الرائع . وأنا نفسى ـ حين كنت أصادفها فى طريقى بالشانزليزيه ، تتهادى كالغزال وعلى كتفيها معطف من الفراء الثمين زادها فتنة وجمالا والناس يتابعونها بأنظارهم ، والشباب والفتيات من طلبة المدارس يتدافعون نحوها ملتمسين أن توقع لهم بامضائها على كراساتهم ـ لا اخفى عليك أنى كنت أشعر بعنقى تلتوى للخلف بالرغم عنى لأشبع عينى من النظر الى وقارها وحسن هندامها .

ترى .. هل يكون أى انسان سعيدا بمثل هذه الأم ؟.

واذا كانت حياة الناس ملكا لهم وحدهم ، يعيشون كما يحلو لهم ، فان حياة أهل الفن ملك لجماهير العشاق وملايين المعجبين يتعطشون لدس انوفهم فى كل صغيرة وكبيرة فى شئونهم الخاصة ، فالناس كلهم يعلمون أنها لم تتزوج زواجا شرعيا الا منذ اثنى عشر عاما فقط ، وكان صديقك جورج فى الخامسة من سنى حياته ، ومع ذلك لم يستمر زواجها أكثر من عام .

وزابو نفسه الذي ما يزال على قيد الحياة ، لا يستقر في بلد واحد ، فهو بالأمس في اليونان واليوم في بناما وغدا في الولايات المتحدة يباشر اعماله الكبيرة في كل تلك الجهات ، وهو أيضا ممن يشار اليهم بالبنان فحياته العامة والخاصة مثار اهتمام الجماهير والصحف .

وهو لا يرى ابنه الا مرة واحدة كل عام ، في مدينة فيشي التي اعتاد أن يمضى فيها شهرا للاستشفاء فيمضى ابنه تلك الفترة معه .

ولست أعلم : هل يداوم على الاتصال بولده في غير ذلك مستفسرا عن متاعبه وتقدمه في دروسه ومشاركته في مشاكله كما يفعل الآباء نحو أبنائهم ، أو يكتفى الابن بمتابعة ما تنشره الجرائد والمجلات المصورة عن تنقلات أبيه على ظهر يخوته الضخمة وسياراته الفخمة وخيوله التي تجرى في ميادين السباق أو مغامراته الغرامية مع النساء من كل لون وجنس ؟.

وظل ضيوفنا يتحدثون ولعلهم ما زالوا يتناولون أسرة زابو بالتجريح والتشريح .

وفي البداية سعلت زوجة الدكتور ترمبلى لتسترعى نظر السيدة لانيير ، بأن ابنتها الشابة الصغيرة تنصت الى ذلك الحديث ، ولكن السيدة لانيير قالت :

ـ لا أرى بأسا من أن نتحدث في وجود ميربيل ، وقد يكون لديها ما تضيفه الى معلوماتنا .

وعندئذ .. انسحبت لانفرد بنفسى .

لم اكن اعادى مخلوقا وخاصة ضيوفنا .. أو اكره رؤيتهم . بيد انى كنت اشعر بأن لا مكان لى بينهم ، فأتركهم لشأنهم وانطلق الى مكتبى .

* * *

وحين كنت في الثامنة من عمرك لابد أن أحد زملائك في المدرسة قد سألك يوما ما :

ـ ما حرفة ابيك ؟ .

فنحن ـ وان لم نكن واسعى الثراء ـ يعلم جميع أصدقائك

التلاميذ والباعة وسكان الحى جميعا الذين يعرفوننا ، اننا فى سعة من العيش .

فنحن نسكن فى أجمل أحياء باريس وأهمها على قيد امتار من قوس النصر ، وفى مواجهتنا يقيم رئيس الوزارة كما يجاورنا كبار الساسة ورجال الفكر والمال والسفراء .

ولدارنا ـ شأن جميع الدور فى ميدان ماكماهون ـ بوابة ضخمة من السنديان اللامع عليها مقابض نحاسية رائعة ، ومدخل متسع تغطيه السجاجيد الحمراء التى تمتد فوق درجاته الرخامية ، وغرف جميلة مشمسة فسيحة الأرجاء .

وعندنا الوصيفة اميلى التى لم تفارقنا منذ خمسة أعوام ، ثم الطباخة العجوز زوجة الرجل الذى يعمل فى الحرس الجمهورى .

ثم لدينا سيارة لابأس بها شكلا وموضوعا ، وان لم تضاد فى روعتها مئات السيارات التى تقف فى منحنى الميدان القريب من بيتنا .

واخيرا ، وليس آخرا فان والدتك تضع فوق كتفيها فراء ثمينا يساوى وحده ثروة طائلة ، بالاضافة الى ذلك المعطف الجميل الذى اشتريته لها أيام زواجنا المبكر .

وكدت أنسى أن أذكرك بأننا نذهب كل صيف الى ساحل الأركاشون ، أما فى الشتاء فنقضى أعياد رأس السنة فى ملهى كبير . ثم نذهب للتزحلق فوق جليد سويسرا .

ولا ريب فى أن جميع أقرانك فى الليسيه كارنو من ابناء الذوات وفى مستواك نفسه تقريبا ، فليس ثمة ماتخشاه من أسئلتهم الفضولية كما كان يحدث لك وانت فى المدرسة الابتدائية .

واكاد اقسم أن أحدا من أصدقائك الصغار قد سألك « ماحرفة أبيك ؟ » وانك قد ترددت كثيرا قبل أن تسألنى :

ـ من اين تحصل على المال يا أبى ؟ .

فلقد اعتدت أن ترانى أخرج فى الصباح حاملا حقيبة أوراقى ثم أعود فى الظهيرة للغداء ، وفى المساء أعتكف فى مكتبى وأتناول عشائى وحيدا ، واذا ما أحدثت جلبة أو رفعت صوتك وضعت

أمك سبابتها على شفتيها وتقول لك :

ـ اش ! لاتزعج أباك ، انه يعمل !

واذا ما بدا على ضيق أو افلتت منى اعصابى فى أثناء الطعام تقول أمك معتذرة :

ـ ابوك مرهق قليلا .

وأذكر أنى أجبتك وقت ذاك باسما بقولى :

ـ أحصل على المال كأى انسان بالعمل .

ـ وما عملك ؟

ـ اناخبير فى شركة التأمين .

ورأيتك تقطب جبينك الصغير فى حيرة ، لأنك لم تشف فضولك . فمن بين اقرانك أبناء لأطباء أو قضاة أو محامين . ومنهم من هم اولاد أناس مفرطى الغنى لايعملون ، ومنهم من هم اقل ثراء ، أو ربما فقراء عاملون فى المتاجر أو المصانع ، ولكن ليس بينهم من يعمل ابوه خبيرا فى شركة تأمين .

ـ وهل لك مكتب تعمل فيه ؟ وهل هو مكتب كبير ؟

وكان الوقت صيفا . والنافذتان الكبيرتان مفتوحتان على مصاريعهما وزهرة الآنسة أوغسطين تبدو فى أتم رونقها وبهائها فى الأصيص الجميل على حرف نافذتها ، وكنت فى أحسن حالاتى صفاء ، فأسعدنى أن أراك تهتم بى اخيرا ، واجبتك فى رضا وسرور :

ـ ان مكتبى فى أعظم المبانى فى باريس واضخمها بشارع لافيت ، شارع الذهب والمال حيث تتداول الأيدى بلايين الفرنكات كل صباح ، وليس بفرنسا كلها شارع مثله ، وتملكه اكبر شركة تأمين فى العالم .

وثق بأنى لم اقل ذلك غرورا ، ولكنها الحقيقة التى قد تعرفها الآن بعد أن تجاوزت السادسة عشرة ومع ذلك فقد عدت تسألنى :

ـ اتجلس خلف نافذة الصرافة ؟

ـ كلا .

ـ اتكتب طوال اليوم وتحل تمارين الحساب ؟

ـ تقريبا ، اننى أحسب احتمالات الحياة والأخطار .
وعندئذ نهرتك أمك فقالت : عسير عليك أن تفهم ذلك الآن ،
استمر فى عشائك .
فأجبتها غاضبا : حسنا ، اننى مستمر !
ولم اكتف بذلك فقد أردت ان أشبع فضولك ، واخذتك معى مساء الاربعاء الى شارع لافيت ، ولاحظت عليك معالم الدهشة والرهبة وأنت تدلف من بين الباب البرونزى الكبير الى الردهة العريضة الطويلة ذات الرخام الأسود اللامع ، وسألتنى مشيرا للحارسين ذوى الثياب الرسمية والزرائر الذهبية وهما يؤديان لى التحية :
ـ هل هما شرطيان ؟
ـ كلا ، بل هما حارسان .
ـ ولماذا يحملان مسدسين فى حزاميهما ؟
وحينما حيانى كبير الخدم بالباب قلت :
ـ لماذا يعلق سلسلة فضية حول عنقه ؟
كانت تلك الفترة الوجيزة التى قضيتها معى وقتئذ من أجمل لحظات حياتى ، ولا تسل عن سعادتى وانا أريك المصعد الكهربى الذى يسع عشرين شخصا ، والماشى الطويلة المكسوة بالسجاد السميك ، وعشرات الغرف ذات الابواب المصنوعة من الخشب الثمين اللامع وعلى كل منها رقمها النحاسى ، كذلك شعرت بالسرور وانا أصعد بك الطابق الثالث من مؤسستنا الضخمة التى تعمل كأنها خلية النحل ، الى حيث غرفتى الخاصة وعلى بابها لافتة « ممنوع الدخول » فسألتنى فى دهشة :
ـ لماذا لايسمحون للناس بالدخول ؟
ـ عمل الخبير الحسابى لايتصل بالجمهور ، ولاينبغى ازعاجه .
ـ وما السبب ؟ .
ـ ذلك لأن عمله ذهنى شاق يحتاج للهدوء ، وايضا فى غاية السرية .
وبدت عليك امارات الارتياح حينما دخلت غرفتى الواسعة الأنيقة ورايت مكتبى العريض وتليفوناته الثلاثة وبجواره الخزانة

الحديدية الضخمة ؟ والآلة الالكترونية الحاسبة ؟ ثم غرفة المساعدين المحاسبين وبجوارها غرفة الكتبة الذين يعملون تحت امرتي ، والأرفف التي تغطي جدرانها حتى السقف والحافلة بالمجلدات والملفات .

ولم تأت بعد ذلك لزيارتي الا مرتين أو ثلاث مرات في مرورك العابر . اما لتحمل لي رسالة من والدتك ، او لاننا تواعدنا على اللقاء ، وكان آخرها منذ شهرين لاغير حين جئت في السادسة مساء لارافقك الى الحائك الذى يخيط لك ثيابك .

ومنذ ذلك اليوم لم تسألني عن طبيعة عملي ، ولعلك تكون قد وجدت وقت ذاك الاجابة التى اقنعتك ، أو ربما تلقيت بين دروسك في (الليسيه) عمل الخبير الاكتوارى في شركات التأمين .

وعلى اية حال ، فما اشك أن ابن الثامنة قد كون في راسه صورة عن ابيه ، فأنا أشغل مكانا وسطا بين درجات السلم الاجتماعى أرفع شأنا من اولئك الموظفين الذين رأيتهم يعملون في مكاتبهم بالطوابق السفلى ، وأدنى قدرا من أولئك المديرين الذين يجلسون في مقاعد وثيرة تدور حول نفسها ويعبثون بسلاسل ساعاتهم الذهبية بين أصابعهم المزينة بالخواتم ذات الفصوص الضخمة ، ولهم غرف خاصة لاستقبال الزائرين وجلوسهم حتى يسمح لهم بالمثول بوساطة الحجاب على الأبواب .

وباختصار أنت لم تمتلىء بى زهوا وافتخارا ، كذلك لحسن الحظ لم تصدم في أبيك مما يجعلك تحنى راسك بين اقرانك ذلا وعارا .

وربما تخيلتنى فى راسك الصغير رجلا معدوم المواهب والرغبة في المجد والطموح ؟ يهرب من المسئوليات والمغامرات ، فهل لى أن اسألك بدورى ؟ ماذا تتمنى أن تكون بعد عشرة أو عشرين عاما للأمام ؟

انا لم احاول ان اسألك قط ، لعلمى ان الاجابة – ومن طفل في سنك – لن تكون سهلة او يسيرة المنال ، وامامك المستقبل مازال عريضا حافلا بالأحداث والمفاجآت على الرغم من انه كثيرا

ماوجه اليك ضيوفنا ذلك السؤال ، والناس مغرمون بتوجيهه دائما لأطفال أصدقائهم على سبيـل المداعبة : ماذا تحب ان تكون عندما تكبر يابنى ؟

ويبدو الغضب على وجه أمك حينما تسمعك تقـول : لست أدرى !

فتقول لضيوفها معتذرة : ـ يحيل الى ان جميع اطفال هـذا الجيل على هذا الطراز ، لا يعلمون ولا يبالون ! ولا يحددون هدفا معينا للمستقبل كل ما يهتمون به فى هذه الايام هو الجـرى الى المدرسة ، ثم الذهاب الى السينما !.

وكنت ألمحك تطرق برأسك خجلا ، فأرثى لك ، فهل تراك قد احسست وقتئذ بأن قلبى معك ، وانى لا أومن بتاتا بما يعتقـده بعض الناس من أن الدنيا تشهد اجيالا أسوأ من سابقيها .

اما أنا حينما كنت فى مثل عمرك ويفاجئنى احـدهم بذلك السؤال السخيف ـ فانى كنت اجيبه على الفور

ـ سأدرس القانون ، لا لرغبة حقيقية فى نفسى ، بل علمى ان تلك الاجابة تسعد أبى ، فقد كنت أرتجف فزعا من مجرد التفكير فى ارتداء « روب » المحاماة مواجها الجمهور والخصوم والقضاة ، أو فى أى عمل له احتكاك مباشر بالناس ، وكان حلمى الأكبر هو أن اغدو استاذا فى العلوم انزوى فى معملى الخاص اجرى فيـه ماأشاء من الابحاث بعيدا عن العيون والأنظار !

ثم انتهى بى المطاف لأتولى منصب المحاسب الاكتوارى فى اهم شركات التأمين بفرنسا .

وصدقنى ـ ولا اقول ذلك زهوا او غرورا ، اننى اؤدى من خلف ذلك الباب اللامع المغلق المعلقة عليه لافتة « ممنوع الدخول » عملا بالغ الأهمية شديد الحساسية فى عالم المال والاقتصـاد ؟ لست حقا ممن يجرى الذهب بين أصابعهم ، أو ممن ترمقهم العيون فى تلك المكاتب الواسعة ذات التماثيل الرخامية الرائعة والأثاث الفاخر ومع ذلك فانا الجندى المجهول الذى يحمل على كاهله اثقل الاعبـاء !

وستدهش حين اقول لك : انى قد حققت ايضا حلمى الكبير « أستاذ العلوم الذى يجرى الابحاث الخطيرة فى معزل عن الناس » فاننى داخل مكتبى ابحث علميا وتحت مجهر مكبر طبيعة الكوارث بكل انواعها برا وبحرا وجوا ، سواء اكانت عن وفاة او حريق أو غرق او حوادث سفن وطائرات ، أو مخاطر طبيعية واقتصادية وجنائية ، ربحا أو خسارة .

ومن أجل هذا ، رايت فى مكتبى تلك الآلة الالكترونية الحاسبة التى أثارت فضولك .

ومعذرة ان كنت أبعث فى نفسك الملل وانا اذكر لك ذلك .

ولكنى أريد أن أثير فى نفسك الشعور بالاهتمام بعمل أبيك ، فهل تصدق مثلا أن كل كشف جديد فى دنيا الطب والدواء يقلب تقديراتنا كلها راسا على عقب ، وان أى تغيير فى رغبات الناس أو ما اعتادوه من طعام او شراب أو كساء يقلل أو يضاعف الحد الادنى الذى ينبغى ان يدفعه المؤمن عليه ، وأن أقل خلاف فى تقدير سرعة الرياح او شدة الأمواج او مدى ماتتعرض له البلاد من وباء مثل الانفلونزا او الكوليرا ، تحملنا خسائر تزيد عن بلايين البلايين من الفرنكات ، بالاضافة الى تلك الزيادة المطردة فى السيارات التى تجرى على الطرق البرية بسرعة البرق . والآلات الكهربية التى لا يخلو منها بسبب تقدم الحضارة أى مصنع أو مكتب أو بيت ويستخدمها الناس فى كل شيء ، وما سببه كل ذلك من كوارث فى الأرواح والأموال !.

وهكذا ترى أن جميع أولئك البشر الذين ينطلقون امامك فى شوارع باريس وعواصم البلاد الاخرى يدخلون الآلات ذات الفعل الالكترونى ، ويخرجون منها أرقاما ورموزا ، وعلى أساس تقديراتنا تعمل هذه المؤسسة الضخمة من اول ذلك الساعى الصغير حتى مديرها الكبير !

واكاد اشعر بنفسى — وقد غدوت مجموعة من الرموز والأرقام ، حتى أولئك الضيوف الذين تركتهم توا مع والدتك أرانى فقدت الاهتمام بهم كمخلوقات من دم ولحم ، مما يفسر لك غرامى فى

الاعتكاف وحدي .
ومنذ سنوات وانا ارقبك خفية لأرى : هل تحب امك اكثر مني ، أقصد : هل هي اقرب الى قلبك مني ؟ وهل تحقق في خيالك الصورة التي يتمناها كل ابن لأمه ؟
انها ـ وان كانت صارمة حازمة في معاملتها لك ، كما هي معي احيانا ـ لا ينقص ذلك من حقيقة حبها لك ، وهو حب يختلف كما وكيفا عما تشعر به هي نحوي .

وأكاد ألمس من طريقتها أنها تريد أن تخلق منك رجلا مثاليا ، تحددت صورته في أحلامها ، وانها في سبيل ذلك قد تشتط في قسوتها كلما بدر منك ما يعكر صفو تلك الصورة الجميلة التي تحب أن تقدمها في طبق من الذهب لمن اختارتها لك شريكة العمر «ميريل» حتى تليق بمصاهرة وزير المستقبل أو ربما أصبح رئيسا للوزارة قريبا أو بعد حين !
أنا لا أبخس والدتك قدرها ، أو أحاول أن أحط من شأنها أمام عينيك .
ولعلك قد ادركت بما اوتيت من ذكاء وفطنة أنني وامك لسنا بالزوجين المثاليين بما تحويه العبارة من معان ، ولا أعني بذلك ان أحدا منا يكره الآخر أو يتمنى فراقه ، فنحن راضيان قانعان بأن نكون صديقين فحسب ، لكل منا غرفته الخاصة ، نشترك في أوقات الطعام ، كما نشترك في الاسم الواحد .

وقلما نتشاجر في وجودك ، وفي الحق نحن لا نتشاجر أبدا في هذه الأيام ، لأننا لانلتقي الا نادرا وفي المناسبات .
ولم يحدث ذلك فجأة ، بل تدريجيا وعلى مر الأيام ، وبعد ان تزوجنا ببضعة شهور .
وانا لا ألومها في ذلك مطلقا ، فالذنب ذنبي بمفردي ، وانا الذي اسأت لنفسي ولها ايضا .

ولكن مهلا ، فما زال امامنا متسع من الوقت حتى نخوض معا ذكريات الماضي .
وما بدات قصتي بالحديث عن جدك الا لأن مراسم دفنه هي

التى اوحت الى بالكتابة اليك ، واهم من ذلك أيضا انه كان اهم شخصية لعبت دورها فى مأساة عام ١٩٢٨ ، كذلك كان الضحية الأولى فى أسرة فرنسوا ، وقد شاءت الأقدار أن يتلطخ اسمه وهو فى اوج مجده بالخطيئة والعار .

وعندما تزوجت والدتك فى ١٩٣٩ لم يكن احد منا تنقصه الخبرة او التجربة ، بل كان كلانا عاقلا رشيدا حنكته الأيام ، فى الواحد والثلاثين من عمره ، ولكل منا ماضيه .

ولم تحاول اخفاء شيء من ماضيها عنى ، كذلك أنا اعترفت لها فى صراحة وصدق بكل ماوقع فى لاروشيل عام ١٩٢٨ .

وثق بأن ما ستعرفه فى السطور القادمة عن والدتك سوف يضاعف من حبك لها ، أما أنا فلست أدرى يا ولدى : هل ترحمنى أو تلومنى بعد مماتى ؟

* * *

كان ذلك آخر ماسطره قلمى حتى مساء الجمعة .

وكنا قد ذهبنا البارحة « السبت » الى المسرح بدونك ، ولم نطلب منك أن ترافقنا ، لكثرة ماكنت ترفض فى المرات السابقة مفضلا أن تقضى الوقت مع بعض اصدقائك مما كان يحز فى قلب والدتك قليلا .

واليوم ـ الأحد ـ الطقس قارص البرودة على غير عادته فى نوفمبر ، الحرارة دون الصفر ، وزهرة الآنسة اوغسطين لم تظهر فى نافذتها الا فترة وجيزة جدا فى النافذة ، حينما استطاع شعاع هادىء من الشمس أن ينفذ متلصصا من بين السحب ليطبع قبلة خاطفة على جبين الزهرة ، قبل أن تعود الى احضان صاحبتها تلتمس الدفء والحب والحنان .

ومزاج أمك ـ كما تعلم ـ لايكون صافيا معتدلا ايام الآحاد خاصة ، لأن صديقاتها لايلبثن فى اماكنهم المعتادة فى ذلك اليوم مما يضطرها للحد من برامجها ونشاطها المعروف ، فالبيت يخلو من الخدم ، ومدام جولز الطاهية تختار الأحد من كل أسبوع عطلة لها ، كذلك اميلى ـ برغم علمنا الأكيد بأنها ليست حريصة على دينها ـ تتمسك بحقها القانونى وتغيب حتى الظهيرة بحجة الذهاب

للصلاة في الكنيسة ، ولا ندرى اين تذهب هـذه الفتاة فى اتم زينتها وأبهى ثيابها ورائحة العطر النفاذ تنبعث من شعرها ؟ .
وتبدأ مشاكلنا منذ الصباح أن لم تكن فى الحقيقة من أمسيات السبت حيث نفكر فى أفضل الوسائل لقضاء اليوم ، فمن اثقل الأمور على النفس أن نقضيه بين جدران البيت معا ، ثم الحدائق والشوارع مزدحمة لآخرها بالسيارات ، غاصة بالمارة والمتسكعين، أما المسارح ودور السينما فحافلة بالرواد والتلاميذ وعاملات المصانع والمتاجر ولا موضع لقدم ، والمحال التجارية مغلقة والمصالح الحكومية معطلة ، ومعظم المعارف والأصدقاء غائبون فى مزارعهم البعيدة فى الريف للصيد والقنص فى مثل هذا الوقت من العام .
وقامت والدتك الى التليفون تدير القرص مرات ومرات ، ولم تجد الا اسرة ترمبلى .
وكما تعلم . اعتذر ترمبلى عن الحضور ، لأنه الطبيب المنوب هذا الأسبوع ، واقترح أن نذهب جميعا الى شقته التى يستعملها سكنا وعيادة لمرضاه فى ميدان (ترنيه) والتى يمتلىء هواؤها برائحة اليسول والكلوروفوم ودعانا أن نمضى السهرة معه وزوجته فىلعب الورق .
ولم أشعر هذا الصباح برغبة فى نفسى للكتابة ، فأمضيت فترة الصباح غارقا فى مقعدى الوثير خلف مكتبى سابحا فى أفكارى .
وفى أثناء تناولنا غذاءنا ـ دق جرس التليفون فاسرعت اليه أمك . وبرغم بعده عنى استطعت ان اميز فيه صوت عمك فاشيه ، وقالت أمك له :
ـ شد ما يؤسفنا أن ذلك مستحيل . سوف نخرج فى المساء أنا وآلين لزيارة بعض الأصدقاء ولعب البريدج .
وكنا نجلس معا أمام أطباق المشهيات فى انتظار والدتك تنصت فى صمت .

ـ آه !. ولكن الا يمكن ان يتم ذلك غدا ؟
وتحدث طويلا ، وأمك تصغى اليه .
ـ حسنا ، اجل ، بالطبع ، انتظر لحظة .. ساخبره .

ووضعت يدها على بوق المسماع وقالت؟
ــ هذا « بيير » يرغب في مقابلتنا هذا المساء لتقرير ما يلزم بخصوص المزرعة والقصر ، لأنه مضطر للسفر الى لندن يوم الثلاثاء في رحلة يطوف فيها بالجزر البريطانيةلالقاء بعض المحاضرات،وقد تطول رحلته ، وقد اتصل بمحاميه لتحديد موعد الاجتماع غدا ، فأخبرته بأننا مرتبطون بزيارة ، ولكنه مصر .

وهززت كتفي استخفافا ، كان مجرد التفكير في أن ينتظر شخص ما أباه ليموت حتى يرث فيه ، يبعث في نفسي الاشمئزاز، ومن الخير أن ننتهي من ذلك الشيء المكروه سريعا فقلت لها :
ــ ما عليك الا أن تتصلي بالسيدة ترمبلي وتعتذري لها بأننا لن نستطيع الحضور لأسباب عائلية طارئة . .
واظهرت أمك استياءها بنفخة من أنفها وقالت :
ــ هكذا يفعل بيير دائما ، يفاجئنا بتحديد مواعيده في آخر لحظة !
ثم رفعت يدها عن المسماع وقالت تحدث فاشيه :
ــ بيير ؟ سنشعر بكثير من الحرج أمام أصدقائنا الذين يتوقعون حضورنا ،ولكن مادمت مصرا ماذا تقول ؟ انتظر لحظة !.
والتفتت تسألني :
ــ أهنا أم في شارع دي باسي ؟.
وكانت أمك تفضل لو انتقلنا الى شقة عمتك،فتكون قدخرجت من بيتها على أية حال ، ومع ذلك فقد أجبتها في حزم :
ــ بل يحضران هنا !

ولا بد أنها فهمت قصدي ، ولكنها لم تجرؤ على معارضتي ؟ فأنا وريث أسرة لافرنسوا ، وما عمك فاشيه الا زوج شقيقتي ، وليس من حقه أن يدس أنفه ويحشر نفسه فيما لا يعنيه من أمورنا، فلا أقل من أن يحضر هو الى ــ اذا أراد ــ ولسوف يضايقه ذلك بلا ريب وقد اعتاد ان تجاب أوامره وتطاع على الفور لمجرد أنه أديب كبير مشهور ، يلمع نجمه في جميع الأوساط .
وانني لأعلم انك قد تأثرت بشخصيته ، وتمتلىء نفسك زهوا وتنفخ صدرك فخرا حينما تسمع اسمه يتردد في الصحف أو

الاذاعة ، أو حين تجد صديقا لك يقرأ فى شغف احـــــدى روائع قصصه فتقول : هذا عمى !.

ونحن مقتربان فى السن ، ولا يكبرنى بأكثر من أربعة اعوام ، لكنه يبدو أصغر منى سنا ، لأنه دائم الحركة جم النشاط لدرجة مذهلة ، لم يترك بابا للشهرة الا طرقه وامتد نشاطه الفـكرى الى الميادين كافة . فى المسرح والسينما والتليفزيون ، كما انه ينتمى لعدة نقابات ونواد فى كل بلد .

حتى زوجته ـ شقيقتى آرليت ـ التى كانت فى الســنوات الأولى لزواجها تعاونه فى كتابة مقالاته وقصصه على الآلة الكاتبة انتقلت اليها عدوى الحماس والشهرة فبدأت تكتب مقالاتفىشتى الموضوعات للمجلات النسائية اولا ، ثم فى جميع وســائل النشر والاعلام حتى ذاع صيتها هى الاخرى ، واحتلت مركزا فى الأدب بضاهية ، وكثيرا ما تراهما مدعوين الى احدى الحفلات ، كلا على انفراد ، وبدعوة خاصة باسمه .

هذا هو بيير فاشيه ـ الذى سوف أحدثك عنهفيمابعد،والذى لم يكن حينما تزوج شقيقتى آرليت الا كاتبا مغمورا فى قلمالمبانى والأشغال المدنية ، القسم الخامس من مبنى محافظة شارنتى التى كان أبى حاكمها العام فى عام ١٩٢٨ ، وكان خشن الطباع أصــفر الشعر والوجه نحيل القوام ، ولم يتغير فيه شيء بعد ثمانية وعشرين عاما الا شعره الذى مضى الى غير رجعة ، لكن صلعته أكسبته صحة وشبابا حتى أمسى من العسير أن تقدر عمره !
وقالت والدتك : ابدآ فى طعامكما ، سوف أتصل بآل ترمبلى فورا .

وأمك دون أية اساءة لها تشعر بالاعزاز والفخر لأنها تصــاهر مثل ذلك الرجل العظيم ، وكثيرا ما عبرت لى عن أسفها لأن فاشيه لم يزرنا قط فى الأيام الأخيرة ، والحق يقال ، انه لم يطأ عتبة بيتى منذ سنوات ؛ بل كان يرسل بين الفينة والاخرى بطاقات دعوات لحضور الحفلات التى سيلقى فيها محاضرات أو تعقد لتكريمه !.
وحين عادت للمائدة كانت متوترة الأعصاب ، فان السهرة التى

اعدتها قد اخفقت بذلك الموعد المفاجيء ، فمضيت اتســـاءل : يا ترى سيكون الضحية التى ستنفث فيه غضبها ، والبيت خال من الخدم ؟.

وكنت أنت ـ تلك الضحية يا ولدى ، فلقد نظرت اليك فجأة وهى تطبق فوطتها وقالت تسألك :

ـ ما الذى ستفعله هذا المساء ؟.

واجبتها انت فى شرود : لست ادرى !.

ـ اخارج انت ؟.

وبدت عليك الدهشة ، فهى تعلم انك نادرا ما تمضى أمسيات الآحاد فى البيت .

ـ أجل ، أظن ذلك . .

ولا بأس من أن أصارحك بأن لك طريقة فى الاجابة كفيلة بأن تثير أعصاب الحليم ، ومع ذلك فأنا أعلم أنك لا تقصد أن تكون خشنا وانما هى حدة فى طبعـك ، وانك فى أغلب الأحيان تنسى ما ينبغى عليك من رقة وأدب فى مخاطبة والديك ، وكنت متحفزا كالملاكم الذى يشمر عن ساعده للدفاع عن نفسه ، ولعلك قــد اثارتك أسـئلتها التى تمس تحركاتك التى تعتقـد أنها تخصك وحدك .

وهتفت أمك فى غضب :

ـ هل تظن ذلك ؟ أم انك واثق من نفسك ؟.

ـ لست أدرى يا ماما ! .

ـ اذاهب انت الى السينما ؟ .

ـ ربمـــا .

ـ مع من ؟ .

ـ لا اعـــلم ! .

ـ الا تعلم مع من ستخرج بعد قليل ؟ .

وكنت التمس لك العـذر واقدر موقفك ، لأنى مـررت بتلك المرحلة فى صباى ، كذلك كنت افهم سبب غضب والدتك أيضا ، لقد نسيت أنك لم تعد طفلا ، وأن الفتى فى عمـرك يمقت كل نوع

من الرقابة ، وانا شخصيا حينما كنت في مثل سنك كنت أغادر بيتي بلا هدف محدود ، وأمضي أفتش عن أصدقائي في كل مكان : في المقهى ، على أبواب السينما ، أو ربما على ناصية شارع ما ؛ وعندما نتقابل ننطلق ونذرع الطرقات والميادين ذهابا وايابا حتى تكل أقدامنا ونشعر بالتعب ، ثم نفترق ، وكنت اذا فشلت في العثور على أحد من رفاقي هنا أو هناك اذهب أقرع ابواب دورهم حتى أجد ضالتي ، ذلك ما كنت أفعله .

أما أنت فقد غمغمت وأنت تنظر في طبقك :

ــ نعم ، لست أدري !

ــ وأين كنت تذهب في أمسيات الآحاد قبل الآن ؟ .

ــ على حسب الظروف ! .

ــ أترفض أن توضح لنا أين وكيف تمضي أوقات فراغك ؟ .

وكنت المحك تزداد تحفزا وأنت تنكمش حول نفسك رويدا رويدا وكأنك تتسلل في قوقعة توشك أن تغلقها عليك ، وسمعتك تجيب واجما :

ــ أما قلت لك على حسب الظروف ؟

وأكاد أقسم أن الأمر لا يعدو أمرا من اثنين لا ثالث لهما : اما أن للبنات نظاما خاصا في الافضاء بكل ما في قلوبهن لأمهاتهن ، او تكون أمك قد نسيت أيام طفولتها ، فما زالت مصرة على اقتحام تلك القلعة المغلقة التي تحتفظ فيها بأسرارك،وكأنها تجهل انه مامن بشر في الدنيا ــ وفي أي طور من أطوار حياته ــ لا يحتفظ في ناحية من قلبه بأشياء عزيزة على نفسه يكره أن يطلع عليها مخلوق مهما كان شأنه !.

وبهذه المناسبة : هل تذكر حينما كنت أسألك ــ وأنت في الخامسة من عمرك ــ في بعض الليالي . عما فعلته في المدرسة ذلك اليوم ؟ وكانت اجاباتك لاتختلف عما تجيب به الآن !.

ــ لا شيء !.

ــ أليس لك أصدقاء صغار يشاركونك في اللعب مثلا ؟.

ــ بلى .

ـ من هم ؟.
ـ لا أعلم !.
ـ وما الذى تعلمته فى المدرسة اليوم ؟
ـ أشياء كثيرة .
فقد كنت ـ وفى تلك السن الصغيرة ـ تشعر بحاجتك الى الاحتفاظ بالصندوق المغلق بما يحويه من غموض وأسرار ، لاتحب أن يفضه انسان !.
ولكن ذلك لم يرض والدتك ، ألم أقل لك ان أعصابها كانت فى بداية الأمر متوترة ؟.
ـ أتسمع كيف وبأى لهجة يخاطبنى ابنك يا آلين ؟
ـ أجل ، أجل !.
رباه ! وما الذى كان فى وسعى أن أفعله ؟.
ـ كأنك تجيز سلوك ابنك الشائن ! فتى فى السادسة عشرة يأبى أن يصارح أبويه بما ينوى أن يفعله !
وغمغمت تقول محاولا انقاذ الموقف : انصتى لى يا ماما .
ولكن الوقت كان قد فات ، واذا بدأت العاصفة فلا قوة فى الوجود تستطيع ان تحول دون مضيها للنهاية .
ـ يجب أن تفهم أن من حقى ، بل ومن واجبى أن أعرف كل شىء عنك مادام أبوك لا يهتم بك أو يبالى .
وامتقع لونك وانت تسألها :
ـ وهل ينبغى أن آخذ منك تصريحا كلما ذهبت الى السينما؟.
ـ ولم لا ؟.
ـ وفى كل مرة أخرج لأقابل صديقا أو ...
ـ بكل تأكيد !.
ـ وهل تعرفين أبا من الأولاد يفعل ذلك ؟.
كان كلاكما متساويا فى العناد .
ـ أتمنى أن يفعل كل الأولاد ذلك وخاصة المهذبون منهم !.
ـ اذن كل اصدقائى غير مهذبين ؟.
ـ هذا لأنك تسىء اختيارهم ، أما انت فعليك ان تفهم أنه طالما انك تعيش معنا تحت سقف واحد يجب أن تكون مثال الطاعة

والأدب والخلق الحسن ، تلك واجبات مقدسة ينبغى أن تؤديها نحونا .

وارتعدت شفتك السفلى ، وكان يحـــدث لك مثل ذلك فى الماضى وأنت بعد طفل صغير كلما شعرت برغبة شديدة للبكاء،ولكن كبرياءك منعك من أن تذرف الدموع أمامنا ، وحقا قلما رأينـــاك تبكى ، وأذكر اننى ضبطتك ذات يوم ـ حين كنت فى الثالثــة من عمرك ـ تحبس نفسك داخل صوان ثيابك وقد انخرطت فى بكاء شديد ، وكدت أغلق الباب عليك بلا قصد ، وعنـــدئذ صرخت فى وجهى تمنعنى بين نحيبك وانينك !.

ـ اذهب عنى ، انا اكرهكم جميعا !.

ولما جذبت ذراعك بالرغم عنك انتزعك من مخبئـــك مضينت تركلنى بقدميك الصغيرتين وتعمل أنيابك الخضراء فى يدى وأنت فى قمة ثورتك وغضبك !. هل تذكر ذلك يا ولدى ؟.

ولكنك لم ترفس ولم تعض أمك اليوم ، بل وثبت واقفــا فى عنف ، ومضيت ترمق أمك فى حيرة لا تعرف ماذا تقول ؟. واخيرا قلت متلعثما :

ـ فى هذا الحال من الأفضل أن أخرج من هنا فورا !.

ولبثت فى مكانك برهة ، وكأنك تتوقع أن يلين قلبهــا لتطلب منك البقاء ، لكنها لم تحرك ساكنا اذ عقلت المفاجأة لسانها وشلت تفكيرها ، وحاولت من جانبى أن أشير لك مهدئا حتى تحنى رأسك الصغير للعاصفة وتنهى الموقف بالاعتذار لها ، لكنك لم تعـــرنى التفاتا !.

وكل ما استطعت أن تفعله هو أنك غادرت قاعة الطعام ضاربا الباب خلفك فى عنف ، وانطلقت توسع الخطا بما يشبه العدو الى غرفة نومك .

وعندئذ زأرت والدتك وهى تلهث فى عنف :

ـ هل رأيت ؟.

ـ أجل !.

ـ طالما حذرتك ! وهاأنتذا قد سمعت بأذنيك نتيجة افراطك فى تدليله !.

ولم أجب ، ووقفت اميلى المسكينة حائرة لا تعرف ماذا تفعل ؟ وهل تستمر فى تقديم الطعام ؟.

ـ هاتى الحساء يا اميلى .

ثم حدجتنى بأنظارها وقالت :

ـ انك لم تنبس حرفا او توجه اليه لوما مكتفيا باتخاذموقف المتفرج كأنك راض عن مسلكه،وحقا أكاد أكون واثقة من أنك موافق على مسلكه !.

ولم أستطع ان أجيبها مؤيدا اتهامها ، وفى الوقت نفسه لم يكن فى وسعى أن أكذب فأجيبها نفيا ، فصمت !.

ـ على الأقل أرجو أن أراك تؤدبه على اللهجة المخجلة التى سمعته يخاطبنى بها ، ولو كنت مكانك لبدأت عقابه باصدار الأمر اليه بعدم تركه البيت اليوم كله ! .

فنهضت .

ـ الى أين ؟.

ـ سأخبره .

ـ بماذا ؟.

ـ بأنى آمره بعدم مغادرة البيت .

ـ يخيل الى انك سوف تتلطف فى الحديث معه .

ـ كلا !.

ـ بل ستفعل ذلك ، واقرأ ذلك فى عينيك !

وانطلقت الى الباب ـ دون ان أجيب ـ أما الباقى فتعرفه ، الا اذا كنت قد نسيته ، ومع ذلك فربما نسيت ذلك حين تقرأ رسالتى بعد بضع سنوات .

وجدتك مستلقيا بكامل ثيابك فى عرض الفراش وقد دفنت وجهك فى الوسادة ، ولكنك لم تكن تبكى ، ومع أنك شعرت بقدومى من وقع خطواتى لم تحرك ساكنا !.

ـ انصت الى يا بنى .

وحركت راسك قليلا حتى تبعد فاك عن الوسادة دون أن ترينى شيئا من وجهك .

ـ لا اريد حديثا من احد ، لا منك ولا من اى مخلوق !.

ــ ما جئت الا لأخبرك بأن تلزم البيت لا تغادره هذا المساء !.
ــ أعرف ذلك .

وساد الصمت بيننا ، وكنت أسمع تنهداتك العميقة تهز قوائم الفراش ، وأنا فى دوامة من الحيرة لا أعرف هل من المناسب أن أقول لك شيئا قبل أن أخرج ، أو أتركك لحالك ؟ وعندئذ سمعتك تقول فى صوت متهدج مكتوم :

ــ اطمئنوا ، لن أخرج !.

وأقسم أنها كانت لحظة صفاء عجيبة ، تجاوبت فيها أرواحنا واتصلت قلوبنا فى مناجاة روحية صامتة لم تحدث لنا قط من قبل . وشعرت كأن ضوءا باهرا أقوى من شمس مايو الساطعة يملأ غرفتك ! .

وقبل أن أتركك ، ربت على كتفك بأصابع مرتعشة حانية ، ثم أغلقت الباب خلفى فى هدوء دون أن أنطق حرفا .

ــ ماذا قال لك ؟
ــ سيظل فى الدار .
ــ أكان يبكى ؟.

وما كان بوسعى ان انطق كذبا ، فهززت راسى نفيا .

وحينما دقت الساعة الرابعة . وكنا قد أمضينا وقتا طويلا مع عمتك وزوجها فى غرفة الجلوس ، انتهزت فرصة مرور امك بى ، فهمست لها : لعلك قد نسيت جان بول ؟

وبدا من نظرتها أنها لم تفهم ، فلما أومأت براسى تجاه النافذة حيث أوشكت الشمس أن تغيب فهمت ما أعنيه فقالت : حسنا ، سأذهب اليه .

وقلت للضيفين اللذين لم ينجبا أبناء : مسألة عائلية بسيطة.

ومضيت اصب لهما مزيدا من الشراب مبالغة فى الحفاوة .

وحين عادت والدتك كانت فى حالةطيبة، وقالت فى صوت خفيض وعلى مسمع من الجميع :

ــ سيأتى لتحية الضيوف الأعزاء تحية المساء قبل أن يخرج.

وظلت لفترة طويلة تتحاشى النظر فى عينى !.

واستأنفنا الحديث مرة أخرى بعد خروجك مع فاشيهوعمتك،

وكان دورى فى النقاش صغيرا ، فقد أحسنت أمك عرض وجهة نظرى والدفاع عن مصالحى بأحسن مما لو كنت فعلت بنفسى .

وعمك فاشيه ، لأن دخله يكاد يكون ضعف دخلى ، بالاضافة الى ما تربحه عمتك أيضا من الكتابة والتأليف ، يعيش هو وزوجته فى اسراف وبذخ شديدين ، مع انه منذ عامين مضيا فحسب ، كانت عمتك تتردد على مكتبى تطلب قرضا يكفى تسديد نفقات البيت حتى أول الشهر !.

ولقد فوجئت ـ يوم وفاة أمى ـ بفاشيه يسألنى فى لهجة بريئة :

ـ لا أعتقد انك تفكر فى الاقامة ابدا فى هذا المكان المكروه !.

ولم أستطع ان أجيبه وقت ذاك بغير الحقيقة ، فلقد انقطعت صلتى تقريبا بفيلا ماجالى بعد أن مضى على وقت طويل وانا أقطن باريس بعيدا عن لوفيسينيه ، والتى فقدت كثيرا من أهميتها بعد ان هجرت العلائات القديمة ذات الأسماء الكبيرة قصورها بين أحضان الريف .

وكان جدك وقتئذ على قيد الحياة .

ولكنى علمت بعد ذلك بفترة وجيزة وبحكم عملى فى شركة التأمين من مصدر أثق فيه ، أنه قد تم اتصال بين فاشيه وبين احدى المؤسسات التى تقوم بأعمال المقاولات والبناء ، لجس نبضها ومعرفة الثمن الذى تعرضه فى القصر لو توسط فى عرضه للبيع .

وهو لا يعلم انى أعرف ذلك ، ولم أذكر له شيئا ـ الى اليوم ـ حينما كان يقول :

ـ كنت أتحدث مصادفة مع صديق لى من رجال الأعمال ، وسألنى عما ننوى ان نفعله فى القصر ، وأكد لى أن هذا الوقت هو أنسب الأوقات للحصول على ثمن مغر ربما لا نستطيع الحصول عليه فى وقت آخر !.

ولم أكن قد اطلعت أمك على ذلك السر ، ومع ذلك فقد ادركت من نظرتها السريعة نحوى أنها فهمت .

والقصر بحالة مبانيه الراهنة لا يساوى شيئا ، بدون حديقته

الواسعة التى تدخل بين أسواره الاربعة العالية . .

وقد قامت على جانبى الطريق دور حديثة مرتفعة البنـاء من ذات الطوابق الستة ، ولم يبق الا عدد قليل من القصور الخاصـة التى تحكى العز التالد والرخاء القديم ، فلو اتيـح لهم ازالة قصر ماجالى لشيدوا مكانه عددا من العمارات الجميلة على احدث طراز تسكنها مئات من العلائات .

وشد ما كنت أكره من اعماقى أن أسمح ليد الهدم أن تدك ذلك البيت الذى أحبه أبواى ، وشهدت فيه ذكـريات عزيزة على نفسى مما يفسر تلك النظرة المتجهمة العابسة التى كانت تبدو فى وضوح على وجهى . النظرة التى كانت تبدو على وجهك أيضا وأنت تكتم ثورتك واحتجاجك على ما تتخيله من اضطهاد أمك لك ! .

كنت أعرف ـ اذن ـ ما وراء ذلك الحماس الذى كان يتحدث به فاشيه وهو يبسط وجهة نظره فى اقناعنا بقبول ذلك العـرض الذى أقبل الينا يحمله مفوضا من ذلك الصديق ـ رجل الأعمال ـ فقد قيل لى : ان مؤسسة البناء قد وعدته بعدد كبير من الاسـهم لو أفلح فى اتمام الصفقة ، ودفعنا على التخلى عن أرض الآباء !.

ومع ذلك فقد اغلقت فمى وتركت لوالدتك الاتفـاق على كل التفاصيل المالية وطريقة الدفع ، وكذلك أنجع الوسائل لخديعـة الحكومة فى انقاص قيمة التسجيل وشهر الارث المطلوبة منا .

واتفقنا على أن نذهب لمقابلة المحامى فى الغد ، ولما كان ابى قد توفى دون ان يترك وصية من بعده فمن المعروف ان الثروة تقسم مناصفة بينى وبين شقيقتى آرليت .

وكما قلت لك : لم يكن فى ذلك اى شىء يدعو للغبطة او السرور ونحن نتقاسم كالذئاب الجائعة ما تركه لنا الأسد ، لذلك شـد ما كرهت أن أرى فاشيه يكاد يرقص فرحا وهو يخطر بيننا وكأسـه فى يده قائلا :

ـ يحسن بنا ان ننتهى ايضا من موضوع الكتب والمكتبة ، اذ لا مناص من أن نبيع كل المنقولات فى المزاد ! .

والمنقولات التى يعنى فاشيه انها سوف تباع فى المـزاد هى الاثاث والمفروشات التى امضى ابى وامى جزءا كبيرا من حياتهمـا

قى جمعها وقضيا بينها ايامهما الاخيرة .
وفوجئت بشقيقتى آرليت تقول :
ـ ما عدا قمطر امى الصغير الذى اعتادت آن تكتب عليه ،ولقد وعدت قبل وفاتها أن تهديه لى ، ولم اشأ ان أقول لكما ذلك حينما ماتت ، اما الآن وقد ...

وسالتنى امك : هل كنت تعلم يا آلين ان امك وهبت قمطرها الى آرليت ؟.
وكان صوتى خشنا حادا ، وانا اقول فيما يشبه الصياح : كلا !.

ـ أوه يا آلين ! ولكن حاول ان تتذكر يوم أن كنا جميعـــا فى « لاروشيل » ..
ـ كلا !.

ـ ما اضعف ذاكرتك حقـــا ! ومع ذلك فانا ألتمس العذر لك بسبب ندرة زياراتك لأمى فى أيامها الأخيرة .
ـ ان ما أحب أن أعرفه هو ما الذى كان زوجك يريد أن يقوله بشأن المكتبة ؟.
ـ آه !. مجرد اقتراح فكرت فى أن أعرضه عليك. ولكن يخيل الى ان اعصابك ليست على ما يرام .
ـ هأنذا انصت اليك .
ـ أراغب حقا فى أن تسمعنى ؟.
ـ اجل .

ـ لقد كنت اكثر اتصالا بأبيك ، واعرفه اكثر منـــك ، ففى لاروشيل خطبت شقيقتك ثم تزوجتها وبين جدرانها وضعت باكورة انتاجى وكنت انت فى ذلك الوقت ماتزال طالبا لم تحدد بعد طريق مستقبلك . تارة تقول : انك تحب الانخراط فى السلك الادارى ، وتارة اخرى تزعم انك تفضل أن تكون أستاذا فى العلوم ، وفى ذلك الحين كان ابوك عاكفا على جمع كتب التاريخ والفلسفة والأدب ، وفى اثناء وجوده بلاروشيل لم يترك اى كتاب جديد وكان يتردد دائما على دور النشر ومكتبات سوق دوميناح حيث كانوا يعرفونه

كلهم ، وكما تعلم كانت القراءة وتنسيق الكتب هى تسليته الوحيدة حتى آخر أيام حياته .

وصمت فاشيه لحظة ، كان يستجمع انفاسه ليلقى قنبلتــه الاخيرة !.

ــ وحيث انى قد اتخذت الأدب حرفة لى ويهمنى كثــيرا ان احصل ...

ولا تدهش اذا علمت انى لم ألق بذلك البهيم من النـــافذة المجاورة ، ولم ألكمه أو أصفعه على قفاه ، فقد كان اقتراحه يتلخص فى أن يبادلنى ، لا ، ليس ذلك هو التعبير المناسب ، بل الأصح هو اختلاس مكتبة أبى بما تحويه من ذخائر نفيسة مقابل ان يترك لى باقى الأثاث والمنقولات !.

ويبدو أنه أساء فهم سكوتى ، فقد لبثت جالسا فى مقعــدى المريح مشبكا يدى حول صدرى محملقا فى الســـجادة أمامى ، فاسترسل فى اغرائه ، بل فى هرائه :

ــ أؤكد لك أن من الأثاث تحفا تعتبر نادرة يتمنى الهواة شراءها بأثمان خيالية ، ولا تنس اللوحات الجميلة .

فوثبت واقفا فى حركة عنيفة تماما كما فعلت انت على مائدة الطعام ، وقلت فى حدة :

ــ كلا !.

ويبدو أن حركتى كانت مباغتة واجابتى كانت فى حدة السوط ، بحيث الجموا جميعا وتسمروا فى أماكنهم . وهم يرمقوننى فى دهشة وخوف ، بيد انى أوليتهم ظهرى وخرجت بعد أن صفقت الباب خلفى فى شدة !.

ولم اذهب لفراشى مباشرة كما فعلت أنت ، بل انفــردت فى مكتبى امضغ غيظى وغضبى ، حتى اقبلت امك تقول : « لقــد انصرفا » .

ثم اردفت وهى تجلس امامى فى ظلال الغرفة بعيدا عن دائرة مصباح المكتب الكهربائى :

ــ حسنا فعلت بتركك الغرفة ، فقد كان يبــدو عليك الغضب الشديد وخفت أن تفقد السيطرة على نفسك !.

ـ وماذا قال ؟.

كنت اعرف من انه لابد من أن يقول شيئا ، وصمتت امك لحظة ثم اجابت :

ـ أتحب حقا ان تعرف ؟.

ـ نعم ، نعم !.

ـ قال : انه لم يتوقع قط تلك المشاعر الكاذبة التى عبرت بها عن حبك لأبيك وتقديرك لذكراه ، كأنك لم تتسبب فى كل تلك الكوارث التى قصمت ظهره ! معذرة يا آلين ! أنت الذى طلبت ذلك !.

ـ وما الذى قررتموه أخيرا ؟

فأجابتنى وعلى شفتيها بسمة الفوز :

ـ لقد أتممت الاتفاق على أن تبقى المكتبة لك مقابل أن تترك لهم حصيلة بيع الأثاث .

ـ وقمطر أمى ؟ .

ـ أذنت لشقيقتك ان تحتفظ به ، لأنه لا يناسب نظام بيتنا ، ولكنك ستأخذ قمطر أبيك ومقعده الكبير .. والآن : هل تعلم الى أين نحن ذاهبان ؟

ـ كلا .

ـ الى أحد المطاعم حيث نتناول عشاءنا على نغمات الأوركسترا.

وكانت تلك أحسن وأصوب فكرة وخير ما فعلت والدتك .

ولله ما أعجبه من يوم حافل بالمفاجآت ! فما ان خرجنا من المصعد حتى قابلناك .

ـ هل تأتى معنا لتناول العشاء معا يا جان بول ؟.

ولم يطل ترددك ، فلقد جئت معنا فى الحال الى المطعم !

الفصل الثالث

لقيت امك لأول مرة فى مارس عام ١٩٣٩ واسمها وقت ذاك « اليس شافيرون » وكان كلانا فى الحادية والثلاثين بفارق شهر واحد بين عمرينا .

ولم يكن لربيع ذلك العام ـ بالنسبة لنا نحن أبناء ذلك الجيل ـ اى شبيه بين سائر فصول الأعوام التى مرت بنا ، فقد جرفتنا

عواصف الاحداث العالمية المثيرة والأزمة الدولية المستحكمة ، وترك كل منا مدرسته وقريته ومصنعه الى بقاع في الجمهورية بعيدة عن عن مسقط رأسه لم يحلم قط بأن يراها .

وكنت ضمن من شملتهم التعبئة العامة قبل ذلك ببضعه شهور « في خريف عام ١٩٣٨ » وارسلونا لحماية الحدود من الغزو المرتقب ، واعتقد الكثيرون منا أنهم يودعون أهليهم الى غير عودة أو لقاء ، أما أنا ـ وكنت أحمل رتبة اللازم في احتياطي المدفعية فقد كلفوني السفر الى الفلاندرز ، وكان الطقس باردا والأمطار الغزيرة قد أحالت كل الطرق الى برك ومستنقعات ، فكل ما كنا نلمسه أو نرتديه رطب موحل حتى سيارات النقل التى تكومنا فيها كفرارات البطاطس وغرف الفنادق الخلفية الكئيبة التى كنا نضطر للتوقف فيها كلما خيم علينا الظلام ، كل شيء كان يبعث على المرض !.

وكنا نقابل في طريقنا آلافا مؤلفة من المهاجرين : عجائز وكهولا وسيدات في مقتبل العمر معهن أطفالهن ، الجميع يحملون ما خف حمله وغلا ثمنه هربا من الموت ، يمضون لياليهم مفترشين الأوحال ملتحفين بالسماء ، هم أكوام من اللحم الآدمى المذعور المقرور ومئات الألوف من الأفواه الجائعة والبطون الفارغة يتركون طابعهم المميز في كل قرية أو مدينة أو حقل يمرون به كأسراب الجراد الشره ، بما تراه أينما أدرت بصرك من اضطراب شديد في سوق المعاملات والطعام أو الاخلاق !

واخيرا وصلت مع فرقتى الحدود البلجيكية حيث انتهى بنا المطاف في قرية هندكشوت .

وكنت أرى معالم الغضب واليأس المرير بادية على وجوه رفاقى الذين انتقلوا فجأة من حياة اللهو والترف والدعة الى العيش في الخنادق وخلف الأسلاك الشائكة ، على نقيض ما كنت أشعر به من السعادة الطاغية ، والرضا العميق والاستسلام للنهاية السعيدة مهما حدث ، بالرغم مما أحدثه تجنيدى المباغت من انقلاب خطير في نظام حياتى .

وكان قد مضى شهران على قبولى في وظيفة صغيرة في شركة

التامين ، ولم أكن قد شغلت بعد تلك الغرفة الأنيقة التى تعرفها والتى لاحظت ان رفوف جدرانها مكدسة بالملفات والاضابير.

وثق بأنى حينما ألحقت بتلك المؤسسة الشامخة بشارع لافيت ولم أكن قد تجاوزت الحادية والعشرين لم تكن لدى أدنى فكرة عن أعمال المحاسبين الاكتواريين، ولم أحلم قط بأن أكون خبيرا اكتواريا، فبعد أن حصلت على ليسانس الحقوق بدأت أدرس للدكتوراه فى القانون ، ثم اذا بى — وفى غمضة عين — وبسبب تلك الحوادث المؤسفة التى وقعت فى ١٩٢٨ الفيت نفسى مضطرا للبحث عن عمل اكسب منه قوتى ويساعدنى فى الانفاق على دراساتى .

ووكلوا الى — بادىء الأمر — تأدية بعض الأعمال القضائية الخفيفة تحت اشراف ذوى المران والخبرة من رجال القانون ، بالاضافة الى دراسة تدريبية فى ترتيب الأوراق فى الملفات والدوسيهات وتبويبها وتنسيقها .

وبذلت اقصى جهدى فى ان أثبت للجميع كفايتى ، وشمرت عن ساعدى وأفنيت نفسى وصحتى على حساب وقتى الذى كنت ادخره للدراسة ، فحرمت نفسى جميع الراحات والعطلات والأجازات وسهرات المجتمع ، مما أثقل كاهلى ، ولكنى لم أعبأ بذلك كثيرا ، ما كنت أكاد أنتهى من عملى فى شارع لافيت حتى أنطلق مباشرة الى غرفتى فى شارع لابراديس فأوصدها على نفسى ، أو ربما ذهبت لحضور احدى المحاضرات الأدبية أو الندوات الثقافية .

وقد لاحظ أبى شدة انزوائى ونحولى المستمر فطلب من شقيقتى ان تسترعى نظرى الى ذلك فقالت لى ذات يوم :

— أراك تعذب نفسك وكأنك قد صممت على قتل نفسك !.

بيد أن ذلك لم يكن صحيحا تماما ، وان كان فيه شىء من الحقيقة !. لم ايئس قط بل كنت اهفو الى تطهير نفسى والتكفير عن ذنوبى وبمعنى أكثر وضوحا ، كنت أعتبر روحى مدينة بالوجود لابى ، وكان العمل الشاق المستمر وسيلتى التى اهتديت اليها للوفاء ببعض ديونى له ..

وحين تقرر ترقيتى الى منصب قانونى كبير — ولم أتجاوز الخامسة والعشرين — رفضت تلك الترقية فى عناد ، وطلبت نقلى

الى فرع المحاسبين بوظيفة كاتب بسيط لاتمرن على الآلة الالكترونية الحاسبة ، ولا تدهش يا ولدى ـ كنت أجد لذة عميقة تغمر مشاعرى كلما أهنت نفسى وأذللتها ، ولم أكن وقتئذ ماهرا فى الرياضيات والمعادلات التى لم أعرها أهمية من قبل فى اثنـــاء انكبابى على دراساتى القانونية ، وكان على أن أهيىء نفسى لعالم الرموز والأرقام، لأكون مثل تلك الآلة الصامتة التى لا تخطىء ولا تكل من العمل ليل نهار !.

وكانت غاية راحتى وسكينة نفسى وسعادتها كلما حججت الى قصر ماجالى فى لوفيسينيه ، وسعدت بالنظر فى عينى أبى ووجهه الحبيب الى قلبى كل أحد ، لأقضى معه لحظات قصارا ، وما كنت اتخلف قط عن موعدى ، على نقيض شقيقتى وزوجها اللذين كانا نادرا ما يحضران .

وهكذا .. كنت فى عام ١٩٣٨ ـ أعد نفسى لدخول مسابقة الدكتوراه ، عاكفا آن ذاك على اعداد المراجع والمذكرات ، بالاضافة الى أنى كنت أقوم فى مكتبى بعمل جميـــــع زملائى الذين قاموا بالاجازات الصيفية !.

وعندما بدت نذر الحرب فى الجو السياسى ، وبدات كل الدول تتأهب وتعد نفسها لذلك تلقيت أمرا بارتداء الزى العســـكرى والانخراط فى سلك التدريب فورا .

كانت صدمة عنيفة قلبت مشروعات حياتى ، رأسا على عقب ، فبعد عشرة أعوام من الكفاح والعمل الكبير المتواصل الذى كنت قاب قوسين أو أدنى منه لاقتناص مستقبل مشرق مشرف يرفـع راس عائلتى ، وأحقق فيه الطموح المتوثب فى أعماقى ، وأجنى فيه ثمرة تعبى أجد نفسى مرة أخرى وقد غدوت ضحية للزمن كورقـة شجر يابسة تعبث بها رياح الخريف القاسيـة ، وفى مكان ما من الأراضى المنخفضـــة حيث الوحل والقاذورات ورائحة البـارود والموت !.

وحتى هذه اللحظة أستطيع أن أرى بيوت قرية هنـدكشوت ذات الطـابق الواحد ، وسيول الأمطـار الغزيرة تختلط مياهها بالأوساخ . واسمع رنين طاسات الجعة النحاسية فى الحانات ،

وضحكات الجنود السكارى ورائحة العرق مختلطة بدخان التبغ وعفن الخمور الرديئة ، كل ذلك يملأ أذني وأنفي الآن .

وذات مساء وفي الرابعة ، كنت أقف مع بعض الزملاء متشحا بمعطف فضفاض من الجلد الواقي من الماء ، فأقبل علينا أحد ضباط الجمارك مسرعا وقد احمر وجهه ولمعت عيناه ، أقبل يعدو وكأنه يطير فوق الأرض يكاد يتفجر من اللهفة والسرور ويصرح من أعماق قلبه :

ـ أبشروا يا أولاد ، الحرب انتهت ، ستعودون جميعا الى بلادكم !.

كان يقهقه في جنون ، كما لو اصابته لوثة ، وكان وجهه مبتلا بماء المطر والدموع !.

كانت اتفاقية ميونيخ قد وقعت وعدت حقا وبعد أيام قليلة الى القصر المرمرى في شارع لافيت ..

ولكن لم يكتب لهذه الاتفاقية أن تعيش طويلا ، ولم يكن هناك سلام كما ظن الناس ـ بل كانت خدعة من الخدع الكبرى وضحكا على الذقون ! . وكان ذلك نصرا لتجار الحرب والسلاح . ومضت كل جبهة تشحذ أنيابها وتستعد للموقعة الفاصلة تحت ستار كاذب من السلم ، أما أنا فلم أكن أبالي كثيرا ، بل لا تدهش اذا صارحتك بأني كنت أرنو الى الموت والتضحية بحياتي في سبيل الدفاع عن الوطن ، حتى أكفر عن خطيئتي وآثامي ، ولكني ما كدت أعود حتى التهبت كليتاى ولزمت الفراش في غرفتي بشارع اوغسطين طوال ديسمبر .. وبذل طبيبي جهدا كبيرا في اقناعي بضرورة السفر الى « لوفيسينيه » لأكون تحت رعاية والدى فترة العلاج ، بيد أني ضربت بنصيحته عرض الحائط ، وبقيت في مكاني أشغل وقتي في قراءة « مذكرات سالي » كما أعدت قراءة مذكرات الكاردينال رتيز للمرة الثانية ، وكان أبي قد أهداها لي من قبل .

وحين عدت لأستأنف عملي في يناير ، كنت ممتقع الوجه ضعيف الأعصاب غير متزن الخطوات ، ومع ذلك فقد صممت على مباشرة واجباتي مما هال زملائي وروعهم ، وأصروا جميعا على ضرورة قيامي باجازة مرضية .

واذ كنت أحمل في نفسي ذكريات جميلة منذ الطفـــولة عن مقاطعة جراسي بساحل الرفييرا ـ حيث كان أبى نائبــا لحاكمها ، فقد اشتد بي الحنين للعودة الى زيارتها ، فحملت حقيبة ثيــابى وبها بعض الكتب التى تبحث فى « تقدير الخطر بالنسبة لشركات التأمين » وانطلقت بمفردى الى مدينة كان ثم نزلت فى فنــــدق سوكيه ، وهو مكان جميل يشرف على المدينة ويطل على البحر ، تحيط به أسوار عالية من أشجار السنط والكافور .

وكنت اقضي اكثر اوقاتي جالسا الى نافذةغرفتي اتأمل القوارب البخارية ذات الالوان الزاهية تروح وتغدو فى الميناء الكبير ، واتمعن فى مياه البحر الزرقاء وأسطح البيوت القديمة المكسوة بالقرميــد الأحمر حين تنعكس عليها أشعة الشمس الساطعــة ، واتطلع فى شغف الى شرفات العمارات الشامخة القريبة وما يدور فى ظــلال غرفها من الداخل من مظاهر الحياة العائلية السعيدة .

وشعرت فى يوم شديد الحرارة ، شمسه ساطعــة ملتهبة ، باغراء شديد نحو البحر فانطلقت للاستحمام ، وكان ذلك خطأ كبيرا منى اذ أصابتنى حمى شديدة فى اليوم التالى ولم أشعر بشيء ونقلتنى سيارة الاسعاف الى مصحة ذات حديقة واسعة غناء .

وهناك ، قابلت المرضة اليس شافيرون التى أصبحت فيما بعد زوجة لى ووالدتك !.

وانني حينما أصف لك تلك الحقبة من حياتي تفصيلا انمــــا اقصد بذلك أن تتبين عن جلاء ويقين ، ظروفى وقت ذاك ، كنت فى حالة نفسية لا أحسد عليها ، وحالتى الصحية فى غاية السوء بين الحياة والموت ، كذلك كان العالم كله فى مثل حالتى : شيخ مريض تنهبه الخلافات والأمراض والأحقاد ، يجلس على برميل من البارود ويشهد فترة سلام قلق مهدد بالحرب والفناء ، ويحسن ايضا أن أعترف لك بأنى لم أكن خلال الاعوام العشرة السابقة قــد تعلقت عاطفيا بأية أنثى لأسباب سوف تعرفها فيما بعد ..

ولا اكاد اذكر الا القليل النادر جــدا عن ايامى الأولى فى تلك المصحة ، سوى انى كنت فى حالة هذيان دائم ، أشهد خيــــالات كثيرة وأحلم أحلاما مزعجة ، كنت أعانى مرضا خطيرا علمت فيما بعد

انه التهاب رئوى حاد كاد يوردني حتفى ولم يكن قد تم اكتشاف البنسلين او مركباته في ذلك الحين !.

وكانت بالمصحة ممرضات ذوات كفاية يتناوبن الخدمة ليلا ونهارا ، ويقمن بواجباتهن خير قيام .

بيد أني كنت لا أميل الى رئيستهن التي كانت تتحدث بلكنة روسية ، وأظن انها كانت احدى المهاجرات الروسيات . وايضا لتكلفها الظاهر في ملاطفتها للمرضى ، أما الثانية وكانت من بنات ذلك الاقليم ، وهي عانس قصيرة الساقين تنبعث منها رائحة زيت الخروع ، وفي الخمسين من عمرها فكنت أنفر منها بالفريزة برغم انها كانت تحدثنى كما كانت تفعل جدتي ، وتبالغ في ترفقها بي وهي تضعني في فراشي وكأني « فازة » ثمينة من الكريستال !.

أما أمك فكانت أجملهن وجها وأرشقهن قواما وأكثرهن جاذبية، كما تراها اليوم ، وكما ستراها الى ما شاء الله ، لم ولن تؤثر فيها السنون والأعوام ما عدا خفة في الحركة كانت تمتاز بها وقت ذاك ، لم يكن مبعثها رعونة أو طيشا ، بل أكبر الظن ، حيوية متدفقة مصحوبة بكثير من الاغراء والرغبة في الاستقرار العائلى الذى كان ينقصها في ذلك الحين !

أو لعلها كانت هي الأخرى تعاني ما كنت أعانيه ، وتدرك أنا نعيش فترة ترقب وانتظار صدور الحكم بالاعدام على الدنيا بأسرها ؟.

رأيتها ـ اذن ـ لأول مرة خيالا أبيض بين ضباب الحمى ؟ وسمعت صوتها قبل أن أميز لها صورة واضحة المعالم .

كذلك هي ، حينما وقع بصرها على لم أكن الا مجموعة من العظام ، شبحا هزيلا يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه من شدة الحمى ويغطى جسمه العرق الفزير ، مجرد بائس ساقته المقادير مثل باقي المرضى الى تلك المصحة ، اذا امتد بي حبل الحياة وعشت ، فمرحبا وألف سلامة ، وان مت قيدت اسمى في سجل الوفيات ، وابدلت اغطية فراشي لمريض يأتي مكاني في الغد ؟

ولكنها ـ برغم ذلك ـ وهو ما عجبت له فيما بعد ـ كانت تخصني بالكثير من العناية والرعاية حتى قبل أن تتوثق صلاتنا أو تعرف عني شيئا !.

كذلك احسست بدورى ـ كما ذكرت لكَ ـ بميلَ غريب نحوها، لم اشعر به تجاه زميلاتها الباقيات .

وارجو الا تتسرع وتسيء الظن فتحسب ذلك حبا ، فنحن لم نتبادل الحب قط في يوم ما ، بل كانت صداقة توطدت أواصرها شبيهة بذلك النوع الذى ينمو بين جنديين فى عمر متقارب يعيشان في خندق واحد بالخطوط الأمامية بميدان القتال ويتوقعان الموت فى اية لحظة . الأمر الذى يضطرهما ـ بحكم الظروف ـ الى رفع كل تكليف بينهما ..

وما زلت اذكر أول عبارة سمعتها منها :

ـ لقد سمح لك الطبيب اليوم بقليل من حساء الخضراوات ، وكعكة ثم بعض المربى ، فهل تشعر بالجوع ؟.

ولا أخفى عنك أنه قد ضايقنى منها حيويتها الدافقة ، فكانت لا تستقر فى مكان ، تنجز عشرات الأشياء فى وقت واحد !.

واستطردت تقول وهى ترمقنى بعينيها الضاحكتين وأنا أتناول الطعام :

ـ ألك أصدقاء أو أقارب هنا فى الرفييرا ؟.

ـ لا أعرف احدا بالمرة .

ـ وفى باريس ؟ ألست مقيما بباريس ؟

ـ بلى ومع ذلك فلا أحد لى هنـاك ، ليس لى الا أبواى فى لوفيسينيه ! .

ـ اتعيش معهما ؟

فهززت رأسى نفيا .

ـ سيتاح لك غدا أو بعد غد أن تكتب لهما شيئا .

ـ أشكرك .

ـ ولم أعرف شيئا عن حياتها الا بعد فترة من الوقت ، فقد اعتادت أن تحضر لغرفتى وتجلس معى كلما سنحت لها فرصة فراغ ، وتترك الباب مفتوحا حتى تستطيع أن تسمع صوت الجرس الخافت الذى جعلوه خافتا حتى لا يزعج اعصاب المرضى أو يوقظ النائمين ، وكان ذلك الجرس يعمل باستمرار ، ودائما يقطع علينا حديثنا ، فتهب واقفة وهى تقول ضاحكة :

ـ انهم لا يستطيعون صبرا ، يخيل اليك انهم فى آخر انفاسهم! او تقول مثلا : هل رأيت ؟ انه رقم ١٧ يطلب الحقنة !

واستطعت ـ فى خلال ثلاثة أيام ـ أن أحفظ أسماء كل مرضى الطابق الذى أقيم فيه ، من الجنسين دون حاجة لأن أراهم، فقد كانت تحدثنى دواما عن كل فرد منهم وعن مرضه وطباعه .

وفوجئت بوفاة أحدهم فى احدى الليالى ، وكان مريضا بمرض عياء ، ولم أستطع النوم بسبب الخطوات المتلصصة والهمس الدائر فى الممر ونداءات التليفون ، ثم حركات عجلات النقالة ، وكنت قد لمحت القس وهو يمر ببابى فى الليلة السابقة يوسع الخطا وكأنه فى عجلة من أمره .

وكانت أليس شافيرون ممرضة السهرة ذلك المساء ، فلما اقبلت لزيارتى فى السابعة صباحا ، كان وجهها نضرا متألقا ، وابتسامتها رائعة ككل صباح !

ـ هل سمعت شيئا ؟

ـ أجل .

ـ انه سعيد الحظ فقد أراحه الموت من آلامه التى تفتت الأكباد ، ولا يغيظنى الا جحود أولاده الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء زيارته الا مرة واحدة منذ ثلاثة اسابيع ! ذلك برغم أن احدى بناته متزوجة وتقيم فى نيس ، وابنه يفتتح جراجا للسيارات فى جراسى نفسها ، اننى أعرف كل شيء عنه ، فهو لاجيء ايطالى جاء لهذه المدينة جائعا مفلسا وبدأ حياته فى أعمال البناء ، أما الآن فهو تارك لهم ثروة ضخمة يسيل لها اللعاب ! وسوف تراهم حينما يسمعون بوفاته يهرعون نحو جثته يتباكون ويندبونه بالموسيقى وأعذب الألحان !

ورمقتنى بعينيها الباسمتين ثم أضافت ضاحكة :

ـ هل ازعجتك رؤية الموت ؟ .

ـ كلا .

ـ انه صدمة لذوى الأعصاب الضعيفة من المرضى ، مما يجعلنا

مضطرين الى التزام الهدوء وعدم احداث اى صوت أو حـركة ما أمكننا .

وسألتها : وأين هو الآن ؟

ـ فى الطابق السفلى لدينا غرفة خاصة بالموتى فى البدروم .
ـ هل تعملين فى التمريض منذ أمد طويل ؟
ـ حصلت على الدبلوم منذ أعوام ثمانية ، ولكنى الآن فى مثل عمرك !
ـ وكيف حدست عمرى ؟
ـ مكتوب على تذكرة سريرك ، انت تكبرنى بشـــــهر وثلاثة أيام !.

وكان طقس الظهيرة ساخنا ، فتركت نافذة غرفتى مفتوحة ، واستطعت أن أرى من خلالها قمم أشجار الكافور العالية وزرقة السماء الصافية ، ولم أكن قادرا على القراءة أو تأدية اى عمل سوى انتظار زيارة الطبيب مرتين فى اليوم بعد تنظيف الغرفة وتنظيفى أنا أيضا ، وترقبى مواعيد الطعام بفروغ الصبر .

ولعل فترة « تواليت الصباح » كانت احلك لحظات حيـاتى محنة حقيقية أجتاز فيها حلقات من الخزى والخجل العميق ، وما ان تنتهى المرضة من أن تستبدل بملابسى أخرى جميلة الرائحة ، بعد أن تغسل جسمى بالماء الدافىء والصابون ، وبعض الكولونيا ، ثم تضعنى وسط الأغطية الجافة الجديدة ، حتى أتنهد فى ارتياح شديد ، وأشعر كأنى قد ولدت من جديد !

وكنت قد ارسلت بطاقة لأبى وأمى اصف فيهـا سرورى من رحلتى الجميلة ، دون ان أشير لمرضى ، وكانت اليس شـــافيرون تذهب الى فندقى وتحمل لى الخطـــــابات التى ترد باسمى الى المصحة .

ولم يدر بخلد احد منا أننا سنرتبط معا بذلك الرباط الأبدى ، بل اكاد أقسم أن احدنا لم يكن ينظر للآخر الا كما ينظر الانســان الى رفيق له فى السفر فى باخرة أو قطار أو فى حجرة انتظار !

ولم أكن قد عرفت من أمرها شيئا بعد ، بل حتى حين عرفت

لم يكن ذلك دفعة واحدة ، بل كان قليلاً منه في مدينة « كان » بالمصحة ، ثم خلال أيام نقاهتي ، واخيرا خلال فترة زواجنا .

كان ابو والدتك نورماندیا ممن يحملون اسم غليوم ، ويزعم انه ينحدر من سلالة وليم الفاتح ، ولد في فيكامب بشارع ديثرثيات ، من أسرة متوسطة الحال حيث كان ابوه يعمل حارسا لعنابر تخزين الخمور .

وكان رجلا ذكيا منذ طفولته تفوق على اقرانه مما شجعه بفضل المساعدات المادية التي قدمها اليه أصحاب المصانع على أن يواصل دراساته ، وكان النجاح حليفه من مدرسة لاخرى حتى حصل على البكالوريوس في التاريخ ، واشتغل مدرسا في الليسيه .

ولم تولد أمك في نيس ، بل في بورجي ، حيث عمل ابوها في بدء حياته ، وحين كانت في الرابعة من عمرها ، نقلوه الى الرفيرا – ولا تضحك اذا ذكرت لك ان أبي – في تلك الفترة بالذات ، كان حاكما عاما لمقاطعة لاروشيل .

وعندما ضاهينا الأوقات معا : اكتشفنا أننا كنا نعيش في الرفيرا – وكلانا بين الخامسة والسادسة – لايبعد احدنا عن الآخر بأكثر من أميال قليلة : هي في نيس ، وأنا في جراسي . وقد مكثت هي أما نحن فقد رحلنا .

اتذكر يوم أن كنت معنا في رحلة بالسيارة ومررنا ببيت أحمر قديم عريض الوجهة متعدد الغرف والطوابق ، وتبادلت أنا وأمك النظرات ؟ ذلك هو بيتها الذى ولدت فيه ، وما زالت جدتك به وقد امست عجوزا دردبيسا ، وكانت قد أشارت لى عليه فى مرة سابقة انه احد البيوت ذات الطراز الايطالى القديم التى تزخر بها الأحياء القديمة فى المدينة فيما بين ميدان مسينا والميناء الكبير، واذا مررت بتلك البيوت فى الظهيرة حسبتها من نوافذها المغلقة مهجورة خالية من الناس ، وما ان يحل المساء حتى تلفظ ما فى بطونها وتطن كل غرفه بالآدميين كخلايا النحل ، ثم ينتشروا على أعتاب البيوت ويجلسوا فى اركان الشوارع يزحمون ارصفتها حتى ساعات متأخرة من الليل !.

وهذه الجدة : هل تذكرها ، وقد زارتنا منذ عدة سنوات قبل أن يقعدها المرض ؟

كانت في شبابها انموذجا رائعا في الجمال تحترف بيع السمك فوق عربة يد تدفعها في ذلك الحى الشعبى من مدينة فيكامب ، فهل تراك قد افزعتك هذه الحقيقة التى قد تضيء لك الطريق فى فهم والدتك ؟.

كانت جدتك تكافح فى سبيل العيش ، بعد ان تلقت شذرات من العلم لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ثم اصبحت ذات يوم زوجة للمدرس شافيرون الذى ينحدر من غليوم سليل الامبراطور وليم الفاتح الذى دوخ أوربا !

وكانت الجيرة كلها تحسدها على ذلك ، وقد اكتسب زوجها مهابة وجلالا ، يرمقونه بكثير من الاحترام وهم يستوقفونه فى الطريق ليقرأ لأحدهم خطابا أو يستكتبه آخر رسالة له ، أو ينتدبوه لاجراء مصالحة أو فض نزاع أو مشاجرة ..

ولم يسعدنى الحظ برؤية مسيو شافيرون قط ، اذ كان قد فاجأته نوبة قلبية قضت عليه قبل أن أذهب الى مدينة « كان » ببضعة أعوام ، لكنى سمعت الثناء العاطر عليه ممن عرفوا فضله وعلمه ، كذلك شاهدت مجموعة من صوره الشمسية ، كان يبدو فيها متجهما عابس الوجه ينظر من تحت انفه فى كبرياء وانفة واستعلاء .

ويخيل الى أنه لم يكن موفقا فى زيجته من بائعة السمك الفاتنة وخاصة بعد أن صار أبا لأربعة اطفال ، كانت أمك صغراهن ، وتضاعفت نفقاته ولم يكن له دخل سوى راتبه المحدود ، لا يكفى الحياة فى المستوى اللائق بمركزه امام تلامذته ، مع المحافظة على مكانة الأسرة التى انحدر منها ، ويقينا ، كان جيرانه الفقراء الذين ينامون على الطوى اسعد منه حالا مع صخبهم المتواصل ومشاجراتهم التى لا تنتهى ، لأنهم اعتادوا ذلك النمط من الحياة المتقشفة لا يشكون ولا يتبرمون بل كانوا راضين قانعين !

وكل واحد من أبنائه الاربعة قد شق طريقا يختلف عن الآخر : اكبرهم « اميل » انخرط فى البحرية وهو فى السابعة

عشرة ، ثم تركها بعد خمسة أعوام الى مدغشقر حيث انقطعت خطاباته عنا ، ولم نسمع عنه الا ما حمله بعض الموظفين العائدين من انه قد تزوج احدى بنات الجزيرة وانجب منها ثمانية أو عشرة من الأولاد .

وأمك لم تذكره قط أمامك ، حتى لا تحتذيه مثالا .

أما جان ـ الابنة الكبرى ـ فقد تزوجت بدالا ايطاليا كان يفتتح محلا فى « غتيبى » ثم افلس فأغلق أبوابه ورحل معها الى الجزائر ، وهناك تشاجرا فحصلت على الطلاق منه ثم تزوجت انجليزيا وما زالت تقيم معه فى ديفونشير

وتليها ـ لويزا ـ التى دخلت الدير .

وكانت أمك قد أنهت دراستها واجتازت امتحان الكفاءة « البوشو » والتحقت وهى فى السابعة عشرة عاملة على الآلة الكاتبة فى احدى وكالات التصدير ، ولكنها قررت فجأة وبعد عدة شهور أن تغير مجرى حياتها وتدرس التمريض ، واذ هى التى بقيت دون أخواتها فى الدار ، فقد وجدت من والديها ارتياحا وترحيبا وتشجيعا على مواصلة الدرس والتحصيل .

ولست أدرى لماذا تركت فجأة عملها الكتابى المريح ؟ ولكنى كلما سألتها عن ذلك احمر وجهها وقالت فى ضيق :

ـ كنت وقتئذ أوزة حمقاء ، رأسى مشحون بالأحلام السخيفة، دعنا لا نذكر ذلك الماضى !

مما يجعلنى اوقن أن ثمة أشياء خطيرة قد حدثت لها ، وهى لا تحب أن تستعيد ذكرياتها .

وعندما حصلت على دبلوم التمريض رفضت أن تعمل فى نيس، وذهبت لتعمل فى مستشفى باريس ومعها توصية من بعض الأصدقاء الى الأستاذ الكبير (ب) أعظم أطباء القلب ، والذى لا تزال كتبه تدرس فى جميع انحاء العالم ، وتتحدث عنه الدنيا كأعجوبة الجيل برغم حداثة سنه .

وكانت أمك فى الثانية والعشرين أكثر جمالا وشبابا مما هى الآن ، وتتحدث بلكنة أهل الجنوب التى تشنف آذان الناس فى باريس ، وكان هو فى السادسة والاربعين ـ فى مثل عمرى الآن .

وهنا اتوقف قليلا لارجوك الا تتسرع فى اصدار حكمك عليه حتى تصل انت لهذه السن ، فاذا حسبت ان الانسان يستطيع أن يسيطر على قلبه فى الأربعين ، فأنت واهم .

ومن اليسير أن نحدس ما حدث ، وسوف تستطيع أن تفهمه بنفسك ذات يوم ، فمما لا ريب فيه ان الأستاذ (ب) قد أغرم بها ، ولولا مذهبه الكاثوليكى ووفاء قديم لزوجته ـ لسارع الى طلاقها والزواج من (اليس شافيرون) ممرضته الحسناء .

أترى ؟ هل كانت من جانبها تحبه ؟ لست واثقا من ذلك ، ولكن من المؤكد أنها كانت تحمل له اعجابا عميقا ، وتتفانى فى الوفاء والاخلاص الشديد له ..

وامضت فى المستشفى عامين كاملين ، ولا يهمنى ان اناقش كيف ومتى كانا يجتمعان فى ذلك الجو المليء بالطلبة والمرضى والأطباء والزوار وغيرهم ؟.

ولعل مصادفات الزمن هى التى لعبت دورها الكبير فيما حدث بعد ذلك .

فقد كان للأستاذ الكبير طبيبة مساعدة تعاونه فى ابحاثه داخل معمله الخاص فى داره ، سيدة مطلقة فى الخامسة والثلاثين لم يشك مخلوق فى أنها لشدة تفانيها واخلاصها وحبها لعملها ،تترك أستاذها حتى تموت ، لكنها التقت بأرمل ثرى كان يتردد على الأستاذ للاستشارة والعلاج فأعجب بها ، ثم تزوجها .

ولم يكن ثمة مناص من أن تحل أمك محلها ، وانتقلت للاقامة بشارع (ميرونسيل) حيث بيت الأستاذ وزوجته التى كانت مريضة بمرض غير قابل للشفاء ، لم يقدر لها أكثر الأطباء تفاؤلا أزيد من خمسة أعوام !

ولو مضت الحوادث فى مجراها الطبيعى لكانت أمك هى السيدة حرم الأستاذ (ب) حتى هذه اللحظة !

كان ذلك أمرا مسلما به معروفا للعامة قبل الخاصة ، كذلك الجميع أصدقاء الأستاذ وزملائه وعارفيه ، وأيضا لزوجته التى لم يكن يشغل بالها سوى صحتها وايامها المعدودات !

ولما كانت ظروف الأستاذ تضطره أغلب الأيام للسهر فى معمله طول الليل فقد أعد لمساعدته غرفة نوم فى المبنى نفسه حتى تكون قريبة منه توفر له مايطلبه وتلبى نداءه فى أية لحظة ، وبمضى الأيام استولت أمك على مقاليد البيت وامتلكت جميع أعماله وشئونه ، وأصبحت سيدته الأولى .

وشهدت بداية عام ١٩٣٨ أمك وهى فى الثلاثين من عمرها مطمئنة تماما الى مستقبلها الذى أرست قوائمه وثبتت دعائمه ثمانية أعوام كاملة بالعرق والدموع ، واذا بالأقدار تضحك منها ساخرة ، وتقبل احدى السيارات العامة مسرعة فتصدم أستاذها وهو خارج من باب المستشفى الكبير فتقتله على الفور !

ولست أدرى مافعلته أمك عندما بلغها ذلك النبأ ، وكل ما أعلمه أنها سارعت فخزمت حقائبها فى التو والساعة وغادرت المدينة كلها الى غير عودة ، ودون أن تلقى نظرة على جثة الحبيب قبل أن يواروها بالتراب !

ولا بأس من أن تعلم أن مدام (ب) قد عاشت ست سنوات بعد ذلك ، وآلت ثروة الأستاذ الضخمة الى أقارب أرملته « وتقدرون فتضحك الأقدار ! »

* * *

وفى اللحظة التى كنت أخوض فيها الوحل فى طريقى الى الفلاندرز ، كانت اليس شافيرون تحط رحالها فى مدينة كان ، حيث كانت هناك وظيفة شاغرة تنتظرها فى المصحة .

ولم يكن فى صوتها وهى تقص على تلك المرحلة الحاسمة من حياتها ما ينم على أى أسف أو حزن ، وكنت وقتئذ أجلس قريبا من النافذة حيث كانت تقف مستندة الى افريزها بثوبها الأبيض وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها ، وأفلتت من شعرها بعض خصلات ناعمة خفيفة كان النسيم الهادىء يداعبها فى رقة فوق صفحة جبينها الوضاء .

كان صوتها خاليا من أى أثر للانفعال أو التأثر ، كما لو كانت تقرأ لى قصة امرأة أخرى فى كتاب بين يديها ، وهى تنظر الى

الحديقة تحتها فى شرود حيث كنت اسمع خطوات بعض المرضى يسيرون فوق حصى المشى .

وفى اللحظة التى ختمت فيها قصتها سمعنا نزيلة الفرفة ١٤ تدق الجرس ، وكانت قد حضرت فى الليلة السابقة لاجراء جراحة عاجلة ، فابتسمت أليس شافيرون وهى تقول وكأنها قد استيقظت لتوها من حلم جميل :

ـ دنيا عجيبة ! أليست كذلك ؟

وبعد ذلك ، بعد ذلك بأيام كثيرة جدا ، كنت استرجع فى ذاكرتى تلك القصة بكل دقائقها وتفصيلاتها ، وجعلت أديرها وأقلبها فى رأسى مرات ومرات ، ولم أشعر بأية غيرة أو مرارة فى حلقى ؟ فاذا كانت قد ارتكبت خطأ فكلنا قد اخطأنا ، وانا بنفسى قد اخطأت ذات يوم وكفى المرء نبلا ان تعد معايبه !

ولقد حدثتها أنا أيضا بما وقع منى ، وهو ماسأسرده عليك بعد قليل ، فأبدت عطفا شديدا على قضيتى ، ومن سمع مصيبة أخيه هانت عليه مصيبته !

اذن ، كان كل منا يفهم صاحبه تماما ، وكلانا ناضج رشيد ؟ وحتى لو كنا نؤمن بالحب ، فكنا نعلم أن مابيننا لايمكن أن يكون حبا ، بل أصح وصف له انه تفاهم ارفع درجة من الصداقة العابرة .

ومع ذلك فمن الثابت انه لم يخطر ببالنا فكرة الزواج قط وقت ذاك .

ولا شك أننا كنا نفكر معا . على نسق واحد

فليس منا من هو مرتبط بخطبة او زواج . والعالم امامنا يرقص على برميل بارود ، لايعلم احد متى ينفجر ، وان كانت الدنيا كلها تؤمن بأن الانفجار محقق واكيد وقريب ! وعندئذ لن يبقى ولن يذر ! واذاماافترقنا ، فهو فراق لا لقاء بعده ، فأنا فى طريقى لوحدتى فى الجبهة الشمالية حيث أنا ملاق لامحالة حتفى ، واذن فمهما يحدث بعد ذلك فهو قليل الاهمية عديم الاثر !

ولعل ظروف مرضي وعجزي وقيامها عني بحكم طبيعة عملها ؛ بأدق الأشياء وأشد الخدمات حرجا لي ، قد سهل من تفاهمنا ، وعجل في تقاربنا ، وما كنت أشعر فيه بالخزي والخجل ، صار أمرا عاديا وطبيعيا دون أي تصنع أو تمثيل .

وعلى فكرة ، كل تلك الأحداث لم تستغرق وقتا طويلا ، بل حدثت في وقت وجيز جدا ، اذ أن مدة اقامتي في المصحة لم تتجاوز ثلاثة أسابيع .

ومع ذلك فقد كان يخيل الي كأني أقمت فيها جزءا كبيرا من حياتي لكثرة الذكريات التي ثبتت صورها في قلبي ، كل ركن ومقعد ونافذة وصوت في المستشفى . حتى رائحة الكافور التي كانت تختلط برائحة الجعة .

وكنت أتصور أحد الباعة هنالك بين تلك الطرق الضيقة التي تنحدر من التل الذي كانت تشرف عليه مصحتنا فقد كنت أسمع طوال الليل أصوات البراميل وهي تتدحرج بعضها ممتلىء وبعضها فارغ ، وصممت على أن أتبين حقيقة الأمر عندما أغادر المكان .. ولكني نسيت ذلك تماما مثلما نسيت أن أذهب لأتفرج بمدرسة البنات القريبة منا والتي كانت تنبعث منها تلك الضحة الحبيبة الى النفس والصيحات الرنانة المرحة مرتين كل يوم في أوقات الفسح بانتظام .

وكان أحد المرضى . وهو كهل يتوكأ على عكاز ويرتدي منامة فوقها روب من الحرير ذو ياقة زرقاء أعارتها اياه ادارة المصحة اعتاد كلما مر في المشي أن يتمهل أمام باب غرفتي ، فاذا كان الباب مواربا ، دفعه بطرف عصاه حتى ينفتح على مصراعيه ؛ وعندئذ يقف على العتبة برهة طويلة ينظر الي واجما صامتا ، ثم يهز راسه وقد بدا عليه أسف عميق وينصرف !

وكنت أحسبه بادىء الأمر مخبولا به مس من الجنون ، أو على أقل تقدير لايقوى على النطق .. ثم تبين لي بعد أن أوشكت مدة اقامتي أن تنتهي انه في كامل عقله كما أنه صاحب صوت موسيقي

عظيم ، ويعمل بالأوبرا « تينور » وكان يقيم منذ ثمانية شهور لاجراء عدة جراحات متتالية ، ولم أسمع صوته الا حين كنت أحزم حقائبى فقد قال لى وهو يقف بباب غرفتى بصوته العريض :

ــ أتمنى لك حظا سعيدا أيها الشاب !

ثم هز رأسه بطريقته الخاصة ، ومضى ! .

وكانت أمك تستأجر شـقة مفروشة تتكون من غرفة للنوم وأخرى للجلوس ملحق بها مطبخ وحمـام فى الطـابق الأول فى منزل على قمة ميدان « القومندان ماريا » وفى مواجهة احدى الصيدليات .

وكتبت لأبوى بضعة سطور مشيرا لمرضى مهونا الأمر ما استطعت حتى لا أسبب لهما قلقا أو انزعاجا ، كما ارسلت خطابا لشركة التـأمين التى سمحت لى بأجازة اضـافية ونصحتنى بأن أعتنى بصحتى ، وعدت الى غرفتى بفندق « سوكيه » .

وكانت الزهور قد أينعت وازدانت بها الحديقة التى كانت تبدو كبساط سندسى أخضر جميل ، واتاح لنا الجو الدافىء الجميل أن نجلس معا فى الهواء الطلق لتناول الغذاء ، اذ كان عيد الفصح على الأبواب ، وبدأت القرية تمتلىء بوفود الزائرين ويزدحم بهم مشرب الفندق وشرفته .

ومضى شهر كامل ، ثلاثون يوما دون أن أقبل والدتك أو يخطر ذلك ببالى ، وكنا نتقابل فى أوقات فراغها ونذهب للسينما وهو أمر لم أفعله مع امرأة ، منذ كنت فى التاسعة عشرة أو ننطلق معا الى جزيرة ليرين فنمشى جنبا الى جنب بين اطلال قلعتها القديمة وتحت ظلال أشجار السنديان والزيزفون ، ثم نجلس فى النهاية فوق صـخرة عالية نتأمل أمواج البحر وهى تتعـانق فى سرور وجذل .

وربما خطرت الفكرة ببالى فعلا ، ولكنى لم آخذها مأخذ الجد ؟ وكنت أقول لنفسى : ولم لا ؟

ومما تطيب له نفسى ان أشعر الآن انها كانت تفكر فى الشيء نفسه . وانما بطريقة أخرى .

انها لا تموت فى حبا ، ذلك أمر مفروغ منه ــ ولكنها تألف الخروج والجلوس معى دليلا على شعورها نحوى بالارتياح والود ، وتضحى بأوقات راحاتها برغم كثرة مشاغلها وعملها المضنى فى سبيل قضائها معى ، وكنا نجد فى ذلك تسلية وتسرية عن النفس وسعادة لاتوصف بلقائنا .

وكانت ظروفها عسيرة ومعقدة .

فوالدها الذى كان أبوه عاملا بسيطا ، كافح ليطفو على السطح ، وامسى فى النهاية مدرسا محترما ترمقه العيون ، كان يرجو أن يحذو وحيده حذوه ويصير طبيبا أو محاميا ، لكن آماله قد خابت فيه « أقصد ذلك الفتى الذى هرب الى مدغشقر ولم يصب من العـ لم شيئا » كذلك شقيقتاها : لا شك فى أنهما بذلا أكثر ماتستطيعان فى سبيل الارتقاء لكنهما فشلتا ماعدا زوجة البقال التى لم ترض بحياة الفقر ، فطلقت ثم تزوجت الانجليزى صاحب مزرعة فى ديفونشير .

وهى لم ترض ان تظل طول حياتها أسيرة مكتب ضيق تعمل على الآلة الكاتبة ، وقد ورثت عن أبيها الطموح ، فانطلقت بخطوات سريعة نحو تحقيق اكبر أمانى العمر وأحلامه . واوشكت أن تكون زوجة للأستاذ الكبير تتسلط عليها الأضواء ، وتنحنى لها الهامات تقبل أناملها ، ولكن الزمن الساخر شاء أن يلعب معها لعبة الثعبان والسلم ، فاذا بها تنحدر هابطة فى عنف وقسوة . درجات كثيرة الى القاع لتبدأ الكفاح من جديد !

وحينما لقيتنى لا شك أنها وضعتنى فى ميزان دقيق .

فأنا ــ وان لم أكن الا خبيرا اكتواريا ــ مركزى محترم واحمل شهادة عالية ، وامامى مستقبل باسم يبشر بالرقى العاجل والمنصب الرياسى الكبير .

وعلى اية حال ، أستطيع ان اؤكد لك انها حتى ابريل عام ١٩٣٩ لم تكن تفكر فى أى شىء من ذلك .

وذات يوم ــ فى أبريل عام ١٩٣٩ ــ على حين كنا نأكل أطباقا شهية من السمك المدخن ، فى حديقة فندق سوكيه ، وكان على

المائدة المجاورة عروسان تتشابك أيديهما فى ود وصفاء ـ سمعت نفسى أقول فجأة :

ـ ماقولك فيما لو عقدنا زواجنا ؟

وكانت المفاجأة بالنسبة لها شديدة غير متوقعة ، فبهتت لحظة ، وأصابتها رعدة قوية كما لو مسها تيار كهربى ، ثم ما لبثت ان انفجرت ضاحكة وهتفت فى جذل :

ـ يا لها من فكرة رائعة ! ونسعد بالاقامة معا الى الأبد !

وظللنا فى حديثنا الفكاهى المرح وتعليقاتنا الساخرة حتى انتهينا من طعامنا وأوصلتها حتى باب المصحة ؛ فقد كانت نوبتها تبدأ من الثانية حتى العاشرة مساء . ثم عدت الى غرفتى ، واستغرقت فى قراءة كتاب فى الاجتماع وتناولت عشائى فى غرفتى .

وخرجت من الفندق فى العاشرة ، وفى العاشرة والربع تماما كانت قد وصلت شارع (القومندان ماريا) ـ وانتظرتها حتى اخرجت المفتاح من حقيبة يدها وكادت تضعه فى ثقب الباب ، فبرزت لها من الظلام .

فقالت فى هدوء : ـ اوه ! أهذا انت ؟

ـ شعرت بأنى فى حاجة لأن اتبادل معك حديثا جديا ، فأرجو ان تسمحى لى بالدخول لحظة .

ولم تتردد ، أو تصطنع موقفا تمثيليا مسرحيا ، بل ادارت المفتاح فى القفل بحركة طبيعية واعصابا هادئة وحينما هممت بالدخول أسرعت تقول :

ـ نصف دقيقة ، دعنى اطمئن الى نظافة المكان !

وسمعتها وهى تضغط على مفاتيح النور فى كل الغرف ثم وهى تلقى ببعض الثياب والملابس القطنية فى صيوان :

ـ تستطيع الآن ان تدخل .

وكانت الشقة توحى لأول وهلة بأنها كانت تؤجر دائما لنسوة من طراز خاص :

غرفة الجلوس بها اريكة قديمة متهالكة ومقعدان ومائدة و « بوفيه » طويل من طراز هنرى الثانى ، والجدران تغطيها صور ورسوم بعضها غير محتشم .
ولاحظت ما أصابنى فقالت موضحة :

ـ الساكنة قبلى كانت احدى الراقصات فى ملهى ليلى وكانت مولعة بلصق صور الغلاف لبعض المجلات الخليعة على الجدران . اتشعر بالظمأ ؟ .
ـ كلا .
ـ ولا أنا ، وهذا افضل ، فلست أدخر الا قليلا من الشراب ربما فسد مذاقه .
اكانت تعلم سبب زيارتى ؟ يحتمل جدا .
قلت لها : كنا نتحدث فى أثناء تناولنا الغذاء فى موضوع زواجنا .
وكنت أحاول أن أفتتح الموضوع بطريقة سهلة .
ـ ومنذ أن افترقنا وأنا افكر فى الموضوع تفكيرا جديا .
وكان ذلك حقا وصدقا ، فلم أستطع تركيز انتباهى فى الكتاب الذى كنت اقرؤه .
ـ ولقد حضرت لأنبئك باختصار انى لم أكن هازلا ، وحيثما ادرت الفكرة فى كل اتجاه لم أجد سببا واحدا يقف فى طريق زواجنا ، فنسعد ونمرح كباقى المخلوقات .
فقالت وهى ماتزال تضحك هازلة : ولم لا ، حقا ؟

ـ فكرى فيما اقول ! ان ما يعرفه كل منا عن صاحبه فى الأيام القليلة الماضية ، ليزيد كثيرا عما قد يعرفه اى خطيبين مضى على تعارفهما عام كامل .
وصمت برهة ريثما التقط انفاسى ثم أردفت قائلا :
ـ انصتى الى بربك ، لن اكذب عليك أو احاول خداعك فأمثل أمامك دور المحب المدنف المدله الذى يقدم قلبه فوق صينية من الذهب مثلما نقرأ فى الروايات أو ترين فى السينما ، كذلك انا لست اتوقع منك شيئا من هذا القبيل .

وخالجنى احساس بأنها متوترة الأعصاب من طريقة ضحكها واستمرارها في سخريتها .

ــ زواج الفلاسفة اذن ؟

ــ بل رباط بين صديقين يحترم كل منهما الآخر ويسعد بلقائه ويهنأ بقربه ، زوجان يتعاونان على المضى جنبا الى جنب بقيــة الطريق !

وعندئذ بدا عليها الجد والاهتمام .

ــ يسعدنى أن أسمع ذلك يا آلين ، وانى لجد شاكرة لك .

ــ لست ممن يهتمون بالجسد .

وقد اخبرتنى فيما بعد ، انها ضحكت طويلا لسماعهـا ذلك وخاصة اللهجة والطريقة اللتين اتبعتهما وجفول بصرى حينـما وقعت عيناى بالرغم منى على الصورة الكبرى الملصقة فوق الأريكة فقد هبطتا فورا الى مواقع اقدامى خزيا ورعبا فى حركة طفلية .

ولم يحدث بيننا مايخدش الحياء تلك الليلة ، او فى الليالى التالية طوال الأسابيع الثلاثة التى أمضيتها فى الرفييرا .

وحين أقبلت تودعنى فى المحطة ، لم أكن قد تلقيت منها جوابا شافيا .

ــ سنرى هل أحدنا يشعر بالوحشة والحنين للآخر بعد أن نفترق شهرا كاملا ؟

ولم اكتب لها خطابا كاملا طوال ذلك الشهر مكتفيا ببطاقــة يومية أشبه بنشرات الطقس كانت تحمل جملة واحدة

« اليوم الخامس : ما زلت مصرا » .

« اليوم السادس : ما زلت مصرا » .

وهكذا .. حتى التاسع والعشرين أما فى اليوم الثلاثين ــ وكان يوم سبت ــ فقد ذهبت لاستقبالها فى محطة ليون ، ورافقتها الى أفخم الفنادق بميدان جراند اوغسطين ، حيث حجزت لهـا غرفة .. تعلو غرفتى .

وذهبنا ــ فى اليوم التالى ــ الى (لوفيسينيه) بعــد أن

حذرتها سلفا انها لن تسمع من أمى حرفا واحدا حتى لا تستاء او تسيء فهمها .

وكان والدى فى غاية الرقة واللطف ، فهو هو الرجل الذى حنكته التجارب وعرفنا عنه النبل والشهامة طوال حياته الماضية.

وعقدنا زواجا مدنيا فى قاعة مجلس المدينة ، وقبل أن نعثر على شقة خالية للايجار .

وحينما اعلنت الحرب العالمية الثانيــة كنا لانزال نقيم فى الفندق نفسه ، وفى غرفتين متجاورتين هــذه المرة ، بينهما باب متوسط ، جعلنا الغرفة الأولى للنوم ، ورفعنا الفراش من الآخرى واعددناها لتكون غرفة جلوس .

ومرة اخرى ارتديت ملابسى العسكرية ، وانطلقت للجبهــة الأمامية ، ولكنى سعدت بمنديل حريرى يلوح فى الهواء فــوق رصيف المحطــة .

الفصــــل الرابع

عدت مرة اخرى الى هندكشوت . الوجوه القــديمة نفسها والحانات نفسها حيث تراق أنهار من الجعة ، وكان هناك أيضــا ضابط الحدود ذو الشعر الأصفر الذى سبق أن بشرنا بالسلام ، ولم تكن بلجيكا قد دخلت الحرب بعد ، ولم يكن مسموحا لنا عبور الحدود ذات الألوان الأسود والأزرق والأحمر والتى كان جنودنا يتكئون عليها للحديث مع بعض المارين .

ومضت الأيام والأسابيع فى بطء السلحفاة على حســاب أعصابنا المتوترة ، وكان جيش العدو يرابط على الجهة الأخرى من خط ماجينو . يتبادلون الدعايات مع قواتنا من خلال اجهزة الصوت المكبرة .

وحينما حصلت على اجازتى الثانية وجدت أمك تنتظرنى فى محطة الشمال ، ولاحظت قبل مغادرتى القطار ـ انها حامــل . وكانت ترتدى معطفا بنى اللون تركت ازراره مفتوحة .

ويبدو ان دهشتى كانت واضــحة على محيــاى ، فبعد أن

تبادلنا القبلات فى صمت قصير ? سألتنى فى لهفة فى وسط الزحام وضجة المستقبلين والمودعين على الرصيف : « اغاضبب أنت ؟ »

قضغطت على يدها التى كانت باردة كالثلج ، ثم هززت راسى .

وما كان من حقى أن اشعر بأى غضب أو دهشة او استنكار ؛ فالحمل ماهو الا نتيجة طبيعية لكل زواج ، وكان ينبغى أن أتوقع حدوثه ، ومع ذلك فقد اذهلتنى المفاجأة ، وأحسست كأن ثمة شيئا غامضا لم استطع تبينه مافتىء يضرب مؤخرة راسى وكأنه مطرقة قوية تقرع بابا موصدا .

« سوف يكون لى ابن »

أما لماذا يكون ابنا وليس بنتا ؟ فذلك مالم أعرفه !

وامضيت أيام الأجازة الثلاثة فى فندقنا بميدان اوغسطين الأكبر ، قمت خلالها بزيارة لمؤسسة التأمين بشارع لافيت ، اطمئن فيها على الأعمال التى كانت تمضى باطراد كالمعتاد داخل المكاتب فى طريق سيرها المرسوم .

* * *

لم أكتب شيئا امس ولا اول أمس ، برغم انى اغلقت على نفسى الباب معتكفا ساعات طويلة فى مكتبى أستعيد فى نفسى ذكريات تلك الحقبة من حياتنا محاولا مااستطعت ترتيب الوقائع فى هدوء ، وكانت هناك حلقة مفقودة هى التى حالت دون ربط الحوادث بعضها ببعض مما سبب لى ضيقا شديدا .

وكنت آمل فى ازالة ذلك الضباب الكثيف الذى يغلف ذلك القسم من الذكريات قبل أن اسجله فى رسالتى ، ومع ذلك فقد مضى يومان وذهبت جهودى أدراج الرياح ، فأعدت قراءة ماسبق أن كتبته فى تلك الوريقات القليلة السابقة ، وخاصة تلك التى تشير الى الأسابيع القليلة التى قضيناها فى مدينة كان ، وخرجت من ذلك كله ناقما على نفسى .

* * *

واليوم وانا اعود للكتابة يخيل الى أن قبسا من فهم وادراك

يتسلل الى قلبى ، فيلقى حلقات من نور لعلها تساعد فى تفسير ما أصابنى يوم ذاك على محطة سكة الشمال الحديدية .

سيكون لى ولد يأتى من بعدى ليحكم على ويزننى بميزان الحق فيقول مالى وما على . !

فأنا بنفسى حين كنت طفلا ثم صبيا اعتدت أن أنظر الى أبوى بمنظار الناقد الدقيق الحريص على ابراز السيئات والحسنات مسجلا فى ذاكرتى الواعية أدق الملاحظات ، ربما لم يكونا هما يلاحظانها ، فمهما أوتى الانسان من وعى وذكاء فلن يستطيع أن ينظر فى مرآة نفسه فينقدها تماما ، فالقريب من الشىء لايعرف أبعاده كلها ، انما الذى يستطيع ان يرى العيوب بجلاء هو الذى يراها من بعيد وبعد سنوات تمر !

وانها قصة قديمة تتكرر كل جيل ، الأبناء يرقبون الآباء ، كما كان هؤلاء يراقبون الأجداد !

قرأت ذات مرة عبارة لأحد الكتاب : ان أبناءنا صورة منا ، وأرواحنا تتحدث على ألسنتهم !

وأظنه يؤمن بقضية تناسخ الأرواح القديمة ويعتقد أن أرواحنا تنتقل فى مدى مائة عام ، من الأب الى الابن الى الحفيد ، تؤثر فيهم الى أعماق نفوسهم ، يظل الحفيد يذكر ما يقوله الأب عن الجد ويراه بعين الخيال يتحرك أمام بصره حتى اذا ما صار الحفيد أبا اندثرت ذكرى الجد واختفت بين طيات النسيان وأصبح أسطورة قديمة بين الحكايات والأساطير ، وهكذا تمضى الأجيال موجة بعد موجة كأمواج البحر تأخذ الصاعدة من الذاهبة ، وتعطى الصاعدة ما يجىء بعدها الى آخر الزمان .

هل قرأت من بين دراستك فى الليسيه ــ كما فعلت فى أيامى ــ تلك القصيدة الرائعة التى خلد بها الشاعر بيرانجيه اسمه ، والتى ما زالت محفورة فى ذاكرتى عن تلك الجدة العجوز التى رأت نابليون حينما كانت بعد طفلة ، وهى تحدث حفيدها عنه ــ الجيل الثالث ، وكان الحفيد يتخيل أنه يرى الامبراطور ممتطيا صهوة جواده ممتشقا سيفه ؟ .

وحينما يكبر الحفيد الطفل وتموت الجدة الطيبة تختفى تلك الصورة ولا يعود البطل الفارس الا مجرد تابوت يرقد تحت قبة الانفاليد يتحدث عنه التاريخ!

مائة عام وبعد ذلك تنمحى كل ذكرى عن الآباء والأجداد ..

والمسئول عن الامساك بطرف أول خيط يا ولدى هو الابن!

سيكون لى اذن ابن ، سيتحدث عنى لأولاده بما انطبع فى ذهنه ذاما أو مادحا .

وكانت أمك أيضا من بين نقادى او ربما قضاتى ، ولكنى انا أيضا .. بدورى — كنت وما أزال قاضيها ، فنحن متساويان فى الأخطاء ، هى تعرف نقط ضعفى ، وانا أعرف نقط ضعفها ، وبجانب ذلك بعد رأت جسمى العارى الضعيف فوق فراش مرضى بالمصحة .

وانى لأتساءل الآن دون أن أصل الى اجابة حاسمة : هل كنت اتزوجها أو تتزوجنى لو أن ظروفنا وقت ذاك قد تغيرت أو لم توجد أصلا ؟

* * *

كانت ولادتك فى تلك الغرفة التى خصصناها لنومنا فى فندق ميدان أوغسطين الاكبر ، فى الثانية صباحا ، ولقد لاقت الخادمة عناء كبيرا فى العثور على احدى القابلات فى تلك الساعة حتى تخرجك الى النور . كلا بل يجدر بى أن أقول الى الظلام! كانت باريس كلها فى حالة اظلام تام لسبب الحرب التى استعر أوارها ؛ ولم نكن نحارب وقتئذ فى « هندكشوت » بل انسحبنا بعد انهيار ذلك الخط المنيع « ماجينو » وبدأ الناس فى باريس وقد تملكهم الرعب يهاجرون منها زرافات ووحدانا .

ولم أكن — بوصفى جنديا — بطلا وفى الوقت نفسه لم اكن جبانا ، فلقد أديت واجبى قدر جهدى وبذلت غاية طاقتى فى القتال . ومع ذلك فقد اضطررت ذات يوم أن أترك مكانى فى مقدمة رجالى واتبعهم — وكان أغلبهم قد خلف سلاحه وراء ظهره — نجرى هاربين ما استطاعت أقدامنا أن تحملنا الى جنوب نهر السين ثم من بعده الى اللوار .

اختلط المدنيون بالجنود فى فوضى ضاربة اطنابها : جموع

حاشدة لا تعرف فيها الحابل من النابل ، تبحث فى يأس وفـزع عن ملاذ لها من عشرات الآلاف من طائرات الأعداء التى كانت تصب علينا حممها ، وتحصدنا على قرب شديد بمدافعها الرشاشة فوق رءوسنا وكأنها ترش أحد الحقول بقاتل للحشرات ! .

وكنت وقت ذاك أتوقع مولدك ، ومع ذلك فلم أسمع به الا بعد شهرين كاملين حينما استطعت أن أحصل على ثيـــاب مدنية فى (انجوليم) وتسللت عائدا بمفردى متنكرا الى باريس .

لم أقتل فى الجبهة ، ولم أجرح أو أقع فى الأسر ، كما حـدث لأغلب جنودنا ، بل عدت سليما معافى الى مكتبى فى شارع لافيت ومضيت فى عملى المعتاد مرة أخرى .

وكانت ثمة أماكن عدة شاغرة وخاصة بين وظائف مجلس الادارة التى كان يشغل معظمها اليهـود الذين فروا كالجـرذان المرعوبين وغادروا باريس قبل أن يدخلها هتلر وجيوشه ، ولجئوا الى المنطقة الحرة ، وذهب بعضهم الى انجلترا أو أمريكا !

ووجدت نفسى كفرس الشطرنج أنطلق مدفوعا للأمام . ووثبت درجتين مرة واحـدة ، وانتقلنا الى شقة مفروشـة بأحسن الأثاث وأفخم الرياش بحديقة ميدان مونسترو استوليت عليها بما يشبه الملكية ، وكانت تخص أحد المديرين واسمه ليفى : هرب من باريس وذهب الى البرتغال فى انتظار دوره ليستقل باخرة الى نيويورك مفضلا أن يحتل أحدنا شقته قبل أن يستولى عليها الألمان .

وظللنا نقيم بها حتى انتهت الحرب ، وبعد أن انتهت بعام كامل لأن ليفى لم يعد الا فى عام ١٩٤٦ ، وفى الحق كان ذلك أول مكان شببت فيه وأمضيت فيه طفولتك .

ولم تكن طفولة سهلة ميسرة بالنسبة لك يا ولدى : وكان ذلك أشد ما يزعجنى ..

وما فائدة هذه الأوراق ان لم أكن معك صريحا ؟

شهدنا تلك الأيام حـــــرمانا كاملا من كثير من الضروريات ، وانطلقت أمك تكد وتشقى وتنقب عن كميات اضافية من الطعام ، ركنا نخشى عليك أن تموت من سوء التغذية ، أو تتجمد من شـــدة

البرد والصقيع ، فقد عدمت وسائل التدفئة ؟ وصرنا نبيت في الظلام اغلب الليالي ، لا يطمئن مخلوق على نفسه من الاعتقال او التعذيب او الموت رميا بالرصاص ! ينتزعون الآباء من بين أسرهم وذوي قرابتهم ثم يسوقون الأطفال والنساء الى غرف الغاز حيث يعدمون او لا يعرف مصيرهم أحد !

وكنت أرقبك وفي قلبي خوف عليك .. تنمو وتحبو في ذلك الجو الغريب المحيط بك والذي لا يخصنا ، فتلك الصور على الجدران كلها لأسرة ليفي التي لا نعلم عنها شيئا : أجداد وعمات وخالات وأبناء لا يمتون لنا بصلة او علاقة كنت أحمل لهم في اعماقي كرها شديدا .

وكان الطابق الذي نشغله من الفخامة والروعة بحيث لم يكن في وسعي أن أدفع ايجاره لو كانت الظروف طبيعية . ثلاث غرف فسيحة مؤثثة تأثيثا فاخرا من القطع الثقيلة الثمينة والطنافس العجمية تغطي كل شبر من الأرض الخشبية اللامعة وغرفة الطعام التي تتسع لعشرين شخصا .

ـ حذار يا جون بول ! لا تلوث هذا المقعد انه لا يخصنا !

وفي الحق ، لم يكن في ذلك المسكن ما يخصنا سوى حاجاتك انت يا بني ، فقد كان من المتفق عليه أن نسلم كل شيء بالحالة التي تسلمناه عليها ، فلم نبدل شيئا او نحركه من مكانه حتى الأوراق التي كانت بأدراج المكتب لم المسها ! .

وكانت لدينا وصيفة ـ فرناند ـ هل تذكرها ؟ لقد تركتنا بعد فترة من الوقت لتتزوج كهربيا .. كانت تمضي اغلب أوقات الأصيل معك جالسة على اريكة في احدى الحدائق ترعاك بعينيها ، فقد كانت أمك لكثرة مشاغلها في تلك الأيام لا تكاد تجد لحظة واحدة من الفراغ حتى تهتم بك .

هل تدهش لو اكدت لك ان هذه الأيام في حياة أمك كانت بالنسبة لها اياما ذهبية وأجمل فترات حياتها الزوجية ؟

وما كنت اكاد اشعر بالحرب في غمار مشاغلي بشارع لافيت ، اذ تضاعفت مسئولياتنا لتلك الظروف الطارئة وقلة الموظفين العاملين الذين نقص عددهم الى الثلث !

وسوف تعجب اذا ادركت ان عمل الخبير الاكتوارى فى شركة التأمين قد ازداد أهمية وتعقيدا بسبب الحرب ، فقد كان علينا أن نعيد تنظيم كل أرقامنا وتقديراتنا لتساير حوادث القتل التى كانت تقترن بجنايات السرقة كرها والهلاك جوعا أو بردا أو خوفا وقلقا بالسكتة القلبية أو نزيف المخ وغيرها من أسباب الموت المفاجىء بخلاف حوادث السلب والنهب والاتلاف والحرائق التى كانت تشب دواما فى كل مكان دون أن نصل لمعرفة فاعل لها أو سبب معقول بالاضافة الى مئات الكوارث الاخرى التى لم يرد لها ذكر فى بوالص التأمين القديمة لما قبل الحرب ، وكل ذلك كنت عنه مسئولا ، واى خطأ فى التقدير يسبب للشركة خسارة بلايين الفرنكات .

وكانت الحرب ـ بالنسبة لوالدتك ـ تعنى شيئا آخر أكثر أهمية ، وما يشغل بال كل أم مسئولة عن بيتها عادة ، هو البحث عن طعام يمسك رمق الأسرة ويرد عنها غائلة الجوع ، وفى سبيل ذلك كانت تتحمل مشقات كبيرة فى الانتقال الى الريف والقرى المجاورة لباريس حيث تلقى هوانا شديدا فى المساومة والشراء .

واكتشفت فجأة انها كانت تمارس ولبضعة أسابيع دون علمى نشاطا آخر يختلف فى نوعه عن مجال البحث عن الطعام لنا .

فعلى اثر عودتى من عملى ذات مساء انحنيت عليك أطبع قبلة على جبينك الصغير ، فلاحظتها تحدجنى بنظرة حادة ، كما لو كانت تريد أن تنقل لى رسالة سرية وفى غفلة منك رفعت سبابتها الى شفتيها محذرة حتى لا تشعر أنت بما يدور !

وبعد ذلك بلحظات انتحت بى ركنا بعيدا فى غرفة الجلوس التى لم تكن نستعملها لافتقارها الى وسائل التدفئة ثم همست لى قائلة :

ـ ابتعد عن حجرة النوم الخضراء .

وكانت غرفة مهجورة خالية ، لم نستعملها قط فما كان بى حاجة اذن لدخولها فحملقت فيها مشدوها ، حتى أسمع منها تفسيرا .

ـ بداخلها رجل وأرجو الا يعرف جان بول عن ذلك شيئا ».
وشعرت بدوار شديد فتماسكت وانا أقول :
ـ من هو ؟
ـ انسان يبحث عن مكان أمين يختبىء فيه لبضعة أيام .

واعتدنا بعد ذلك أن « نستضيف » عددا من النـاس بعضهم يمكث ليلة واحدة او اسبوعا بيننا ، ولم أشاهدهم قط الا حينما وقعت عيناى على أحدهم مصادفة ، فسارع باغلاق باب غرفته فى وجهى ..

ـ يحسن بك أن تجهل كل شىء عنهم حتى اذا ما ستجوبوك انكرت صادقا ، وضميرك مرتاح !

ـ وفرناند ؟

ـ لن تقول شيئا كل ما يهمها هو الحصول على المـال . وأنا أدفعه لها بسخاء .

وكانت أمك تقوم برحلات كثيرة لم تحطنى بها علمـا ، وانى لأذكر انك حين كنت فى عامك الثالث ، سألتنى ذات مرة : لماذا تكثر مامى من الغياب فى هذه الأيام ؟

وكانت تخفى عنى تحركاتها أحيانا ـ لا لفقد ثقتها بى ـ بل أنا أعلم يقينا أنها كانت تحرص على أن تتجنب توريطى فى أسرار قد تعرضنى لو اندمجت فيها للرمى بالرصاص ، كانت تهـدف الى التقليل من الخسائر فى الأسرة ما استطاعت ، فلقد بدأ عهد الارهاب . ونشط الجستابو فى التعذيب والاستجواب ، فأصبح الانسان مهددا فى حياته وماله لا يأمن أن يطل من نافذة أو يخرج من الباب !

ومع ذلك ، كانت تلك المخاطر والأهوال أحب الأشياء الى قلب أمك ، فقد وجدت الميدان الذى هويه فؤادها .

ولذلك السبب قلت لك أن هذه الفترة ربما كانت من أسعد أيام عمرها فى حياتها الزوجية .

فكل منا مهما كان مركزه فى المجتمع وضيعا كان أم رفيعا ، يتمنى أن تكون له أهمية فى بعض النواحى ، حتى يشعر بقيمته بين

الناس ، ويحقق بعض أحلامه وآماله !. الا ترى أن السبب الأكبر فيما يمر فيه العالم من اضطراب وقلق نفسانى هو افتقارنا جميعا الى تحقيق ما يدعم خيالاتنا ويحقق أحلامنا ويعيد الثقـــة الى نفوسنا ؟ ما أحوجنا جميعا الى التجرد من عالمنا المادى القائم على المصالح الشخصية والبحث عن المثل العليا فى عالم الروح !

قد تسأم من هذا الحديث الذى يبدو كأنه محاضرة فلسـفية جامدة ثقيلة عن نفسك ، ولكنى أذكر ذلك كى تفهم الكثير عن والدتك التى خاطرت بنفسها وجازفت بالتشويه والتعذيب والموت من أجل تحرير فرنسا من أعدائها فى أشد الظروف قسوة ورعبا .

ومنحوها أرفع الأوسمة عام ١٩٤٥ ، تقبلته فى هدوء وبلا ضجة ، واستحقته عن جدارة وايمان .

ولكنى فقدت زوجة كما فقدت أنت أما فى غمرة تلك الأحداث .

معذرة يا ولدى اذ أذكر لك ذلك ، ولكنها الحقيقة المؤلمة التى لا ريب فيها ، فلقد خرجنا من الحرب ونحن على طرفى نقيض ، ولم تعد الحياة المنزلية وواجبات الأمومة تروق لها بعد ذلك النشــاط الكبير والحماس العظيم ويخيل الى أنها كرهت أن تحبس نفسها بين جدران أربعة .

لقد وقع كل منا فى الخطأ نفسه حينما تصورنا أن ذلك النوع من الصداقة يصلح أن يكون أساسا كافيا للحياة فى عش واحد . وقعنا فى ذلك الخطأ حين كنا فى مدينة « كان » فى جو مثير من المرح والأحلام .

ولست ألومها أو أحملها تبعة ما حدث . كذلك لن تستطيع هى أن تفعل ذلك أيضا .

ثم أين هو ذلك الصديق الذى يدوم لك وللأبد ؟

فالانسان منا يبدأ حياته بأصدقاء الطفولة فى المدرسة الابتدائية ولا يلبث حتى يتخـذ آخرين جددا فى المدرسة الثـانوية سرعان مايحل محلهم غيرهم فى الجامعة . وهكذا يقفز فى حياته عشرات وعشرات فى أثناء حياته العملية الأولى وفى متوسط العمر ، ثم حينما يتقدم به السن نحو الشيخوخة .

تركب القطار من أول الخط ، يصعد البعض ويهبط آخرون ؟ ينطلقون في شتى الاتجاهات .. بعد أن يلوحوا لك بأيديهم مودعين وسرعان مايبتلعهم الظلام!

ولا أعرف أحدا ـ من بين من عرفت او سمعت ـ احتفظ بنفس الاصدقاء لمدة عشرين أو ثلاثين عاما ، ولا أذكر أولئك الذين يتلاقون مصادفة كل عامين أو ثلاثة فيتصافحون في حرارة ويتعانقون وهم يتبادلون ضرب الأيدي على الأذرع والأكتاف يستعيدون ذكريات الماضي البعيد السعيد .

ولو ان رجلا مثلي وله مثل مواهبي وصفاتي منذ عشرة أعوام لكان من المحتم أن يتغير ذوقه ومزاجه ويتطور في عاداته وطباعه خلال تلك الفترة من الزمان ، وأنا نفسي قد تطورت أيضا في هذه المدة وغدوت شخصا آخر يختلف تماما عن الأول ، انطلق كل منهما في طريق آخر مخالف ولا شبه بينهما اطلاقا .

وليس أطيب للقلب وأجمل للنفس من ان يتاح للانســــان أن يتقابل مع صديقه ، في الوقت الذي يريد ، ومتى يحب .. أما أن تلقاه أمامك وقتما وحيثما لا تتوقع أن يفاجئك في لحظات ضعفك وجبنك فذلك مالا يحبه مخلوق ، فهل يمكن أن ينطبق ذلك على الصديق من الجنس الآخر ؟ طالما فكرت في ذلك ، وما زلت أفعل حتى هذه اللحظة بالرغم من اني ـ منذ مأســاة عــام ١٩٢٨ ـ لم اضع ذلك تحت التجربة والاختبار ، ومع ذلك فأنا أومن بأن الحب عامل هام ، لايمكن الاستغناء عنه في تشييد واقامة ذلك الصرح الشامخ ، فهو يعني أن الزوجة أو الزوج يذوب ويفنى في النصف الآخر ، ويصبحان فردا واحدا وجسما واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء .

واجد نفسي مضطرا لأن اضيف هنا شيئا الى ماذكرته عن أبي وأمي ، وهو ثقتي المطلقة في أن ما بينهما كان حبا جارفا حقيقيا الى الحد الذي جعل ابي يمل الحياة بعد مماتها . بيد أنه مازال أمامنا متسع من الوقت حتى أحدثك عن ذلك فما زلنا في جيلنا أتحـدث عن نفسي وعن والدتك خاصة ولم اكن اعتقـــد حينما بدأت ، أني

سأفيض فى ذلك على غير ما توقعت مما يضطرنى لأن أستمر حتى النهاية .

وأنا أجد ـ فى صومعتى ـ ملاذا فى الابتعاد عمن لا أحب من الناس وأجد فيها جنة أحلامى .

وأمك ـ بدورها ـ تجد ملاذا فى نشاطها الدائب .

وربما ظن أصدقاؤنا فيها الطموح ، وأنها فى الحق لكذلك فلم يعد لديها طيارون انجليز أو أعضاء للمقاومة السرية ، تمد اليهم يد العون والمساعدة ، ولم يعد لديها رسائل هامة أو قنابل تحملها فى سلة الخضراوات ، كذلك لم تكن لها موهبة الكتابة مثل شقيقتى تحول اليها طاقتها المشحونة .

وكان أول ما حققته من أمانيها ، هذه الشقة بشارع ماكماهون التى اشترت أثاثها الفاخر بنفسها وأشرفت على تنسيق كل قطعة فى أرجائها مع عمل الديكورات الفاخرة ، ثم استقبال الناس من ذوى الحيثية والمناصب الخطيرة ، فهى لم تنس قط تلك التكنات التى ترعرعت فيها وشهدت فيها طفولتها بمدينة نيس ، أو أصل والديها المتواضع البسيط .

وهى لاتزال فى طريقها للصعود نحو القمة ، ولسوف يخيب أملها فيك ان لم تحذ حذوها فى ارتقاء السلم حينما يحين دورك أنت أيضا .

وارجو أن تضيف الى ماذكرت ذلك الفراء الثمين الذى اشترته أخيرا والذى يساوى وحده ثروة طائلة ، والمعطف الأنيق الذى سبقه ، وأول سيارة خاصة فرحت بها ، وكذلك أول مرة دخلت فيها محلا للمجوهرات فى زهو وكبرياء .

وربما تغير وجه التاريخ وصرنا أسعد حالا لو كان زواجنا عن حب بدلا من أن نعقد تلك الصفقة التجارية ، أو زواج الفلاسفة كما سبق واطلقت نفسها عليه ذات يوم ، عندئذ فقط كنت أشعر بأن لى شريكة العمر ، وكنت تجد فيها الأم التى تفهمك .

سامحنى ياولدى ، أنا مضطر لأن أذكرك هذا ، وأرجو الا أكون قد أسأت اليك .

قبل أن أبدا كتابتى هذا المساء ، مضيت أعيد قراءة ما كتبت أخيرا ، فشعرت بالكثير من الاثم وعدم الارتياح وكأنى قد ارتكبت جرما ، وأوشكت أن أمزق الأوراق كلها .

كنت أحاول - بلا ريب - ان أسجل انطباعات نفسى بين السطور لأزيح عبئا ثقيلا عن قلبى وضميرى ، وأكاد أشعر بأنى أكتب لنفسى أكثر مما أكتب لك ، وربما خطر لى - بمجرد أن أنتهى من رسالتى - أن القى بها فى الموقد طعمة للنيران .

أترانى فاعل ذلك ؟ لسوف نرى .

وان أمك لتبدو - رغم تجاوزها الثامنة والأربعين - أصغر من ذلك بكثير « بفضل حيويتها وروحها المرحة وعينيها اللامعتين » وهى ما تزال موضع حسد وغيرة من جميع الشابات الصغيرات .

فهى ليست كغيرها من النساء ، ممن يفقدن رشاقتهن بعد الزواج ، بل ان جسمها يزداد حسنا وجمالا بمضى الأيام ، ربماكان ذلك لأنها تنتقى أروع الثياب واكثرها تناسقا ، أو ربما لأن السنين قد زادتها خبرة ومرانا باختلاطها بالباريسيات اللاتى رأين الكثير وسمعن الكثير وتعلمن الكثير أيضا ..

وهى لاتختلف عن والدة صديقك - زابو - التى قد تجاوزت الأربعين بعدة أعوام ، ومع ذلك فما زالت معبودة الملايين من عشاق فنها الذين يرون فيها المثل الأعلى للرشاقة والجمال .

* * *

أصبح عيد الميلاد على الأبواب والمدينة قائمة على قدم وساق وكأنها قد أصيبت بالحمى ، فأنوار النيون الملونة تضىء وجهات المتاجر الكبرى تظهر وتختفى ثم تعود فتخطف العيون فى حلقات ورسوم رائعة تحمل الاعلانات التى تدعو الجماهير للاقبال على الشراء ، وبدأت المسارح ودور السينما تقدم أقوى المسرحيات وأروع القصص ، والناس من جميع الطبقات يكادون يطيرون من شدة اللهفة والسعادة ، وازدانت نوافذ الدور بثوب قشيب من الضياء الباهر وسكانها يتأهبون للاحتفال بالليلة الخالدة .

وكان كل زملائى بالمكتب يتحدثون عن الهدايا واين يقضون

السهرة المرتقبة حتى الصباح ، وكنت قد انتهيت بدورى من اعداد الاحصائيات عما نتوقع حدوثه من حوادث القتل والمصادمات والحرائق والانتحار .

وسوف نحتفى بعيد الميلاد مثل باقى الناس ، وسنقيم شجرة الميلاد ، شجرة متواضعة مما يناسب الكبار . فقد كبرت ولم تعد طفلا تستهويه المصابيح الكهربية الملونة ولا القطر الكهربية .

وكنت قد طلبت منى قاربا بخاريا ، وسوف أشتريه لك ، وقد مررت فعلا عقب خروجى من عملى هذا الأصيل بالمتجر الخاص ، ودفعت ثمنه مقدما ، وسيكون تحت تصرفك فى الرابع والعشرين من ديسمبر .

وسوف أقدم لوالدتك قرطا من الماس يتفق طرازه مع عقدها الثمين .

وحين كنا فى لاروشيل عام ١٩٢٨ كانت الدنيا بأسرها تحتفل بعيد الميلاد ، ماعدا أسرة لافرنسوا .

أما اليوم ــ فقد منحونى هديتى ، هدية مؤسسة التأمين التى أعمل بها ، ولم تكن فى هذه المرة مظروفا يحتوى على مبلغ من المال أو صندوقا من السجائر غالى الثمن ، بل اضطرونى الى تحرير اقرار كاذب مزور حتى أحصل على تلك الهدية مما أفسد سرورى بهـا .

وهل ترانى كنت أشعر بالسعادة والسرور لحصولى عليها لولا تلك المأساة أو السحابة التى تظلل الماضى البعيد ؟ .

ربما .

كانت الساعة الثالثة حينما اخبرونى بأن المدير العام يريد أن يرانى فى مكتبه ، وهو رجل مهم جدا ، نخشاه جميعا فبين يديه مصاير الآلاف من الموظفين والمفتشين ، ويحتفظ دائما بأقراص التنترين فى درج مكتبه ، وفى جيوب سترته ومعطفه فهو مهدد بالذبحة الصدرية فى اية لحظة .

وحين يتناول طعامه فى ارقى النوادى والمطاعم ، أو يدعى لبعض الحفلات أو السهرات الرسمية ، لا يقدمون له الا ابسط واخف

أنواع الأطعمة التى حددها له الأطباء يتناولَ منها القليلَ جدا كأنه عصفور !.

وربما كنت أنا الوحيد الذى يعرف لماذا يحتفظ بذلك الشارب الأنيق ذى الطرفين المفتولين والمرفوعين لأعلى والذى يتحول سريعا من الأسمر للأبيض ، ذلك حتى يقصر المسافة بين أنفه وشفته العليا ويخفى بهذه الطريقة رقة وطيبة فى ملامحه ، فبدون ذلك الشارب «المهيب» الذى يرتعد لمرآه جميع مرءوسيه . تراه شخصا عاديا مثل عشرات الناس ممن تقابلهم فى أى مكان .

ــ اجلس ياسيد فرانسوا .

وتغطى جدران مكتبه لوحات زيتية تمثل المديرين السابقين بالتوالى على حسب ترتيب وتواريخ وجودهم فى مناصبهم ، وحينما يذهب ــ ذات يوم ــ سوف يضيفون صورته فى المكان المناسب .

وكانت أصابع يديه طويلة والجلد الذى يكسو اليدين به بقع سوداء لاتسر الناظرين .

وحدج أزرار سترتى بنظرة ذات معنى .. ثم قال :

ــ اذا لم أكن مخطئا فى ظنى فأنت لم تتقلد بعد وسام « اللجيون دونور » !.

فهززت رأسى .

حسنا .. سوف نعوضك هذا التقصير فأنت جدير به ، وسيكون اسمك ــ اذا ما صدق حدسى ــ ضمن قائمة من سينعم عليهم فى العام الجديد ، تلك هى هديتى اليك بمناسبة عيد الميلاد ، فقد كنت أتناول منذ برهة وجبة الغذاء مع وزير المالية الذى تبين أن لديه لحسن الحظ بعض الأوسمة والقلادات الباقية ، وسألنى : هل أعرف من يستحق شيئا ؟ . واذ كنا فى الجامعة معا وثمة صلة قربى بعيدة بين زوجتينا ، فلن تجد نفسك مضطرا الى اتخاذ الشكليات المعروفة المعتادة وما عليك الا أن تملأ هذا النموذج .

واشار بسبابته الى ورقة مطبوعة بها أمكنة خالية للأجوبة كانت على طرف مكتبه .

ــ أعدها لى فورا وتقبلَ تهنئتى الحارة !.

وهو ــ بنفسه ــ يحمل نيشان الاستحقاق من طبقة فارس فهل تراه يستحقه باخلاص ؟ وهل هو يعتقد حقا انى أستحق ذلك

الوسام عن جـــدارة دون باقي المواطنين الذين أدوا للوطن أجل الخدمات وأكبر التضحيات ؟ وهل يعتقد ذلك الوزير الأحمق الذي يرغب في بعثرة بعض الأوســـمة التي بقيت في مـكتبه ـ ذلك أيضا ؟.

اني لأتخيل ماحدث بالضبط في تلك المأدبة : الوزير على رأس المائدة ، والسيد المدير يجلس عن يمينـه ، ويبدو أن الأول قد أفرط قليلا في أنواع الشراب حتى مال على المدير ضاحكا وهـــو يقول :

ـ وعلى فكرة ياهنري ، لا تدهش اذا أخبرتك أنه مازالت لدينا بعض النياشين لم توزع بعد ، فقد تبين أننا قترنا قليـلا فيما يبدو ونحن نكتب القوائم والكشوف .. أتريد شيئا منها ؟.

ويطرق المدير برأسه قليلا يستعيد في ذاكرته أسماء مرءوسيه، ولسبب ما يتذكرني، فيرفع راسه وهو يقول :

ـ أجل ، خبيرنا الاكتواري ، سوف يسعده كثيرا لو حصل على « اللجيون دونور » .

ترى ؟ لو كان قد ذكر له اسمي ..أفما كان الوزير يقطب حاجبيه متسائلا :

ـ هل هو أحد اقارب فيليب لافرنسوا ؟ .

فقد كانا يبلغان عمرا اتاح لهما أن يسمعا بذلك الحادث القديم، ولا أعنى أنه يقف عقبة في ســبيل تكريمي ، فلم تكن لي ـ بذلك الموضوع ـ أية علاقة من الوجهة الرسمية .

ومع ذلك فهأنذا أجد نفسي مرغما على التوقيع على اقرار مزور كاذب !.

فمنذ أن أبى أحد الصحفيين قبول وسام « اللجيون دونور » الذي منحته اياه الدولة ، ورفضه باباء وشمم ، واعاده بطريقة غير مهذبة دلت على شدة احتقاره له ، مما أحرج الحكومة ووضعها في مركز دقيق ، منذ ذلك الوقت ـ وقـد مضى عليه عشرون عاما ـ والدولة تشترط فيمن ترشحهم احدى الجهات للحصول عليـه ، أن يقدم طلبا موقعا عليه منه ، يؤكد فيه مبررات الاستحقاق .

وانا لم يقتصر دورى على انى ملأت نموذجا ووقعته بامضائى فحسب للحصول على وسام لم يخطر قط ببالى او افكر فيه ، بل استكتبونى اقرارا بعدم سابقة مثولى أمام اية محكمة جنائية .

وليس فى ذلك الامر ما يعرضنى للعقاب أو يوقعنى تحت طائلة القانون ، ومع ذلك ، كان ذلك فى نظرى انا شخصيا كذبا وزورا وبهتانا ، فقد كنت أستحق ـ وعن جدارة ايضا ـ ان احاكم ذات يوم أمام محكمة الجنايات !.

ربما كان ايمانى صعيفا ، ومع ذلك فلا أملك الا الشعور بالغبطة تغمر حنايا قلبى كلما سمعت أجراس الكنائس يتردد صداها .. والسعادة تهز كيانى حينما أرقب مواكب الكرنفال والناس يرتدون الثياب التقليدية ويرقصون ويمرحون ، كذلك أشمخ بأنفى زهوا وكبرياء . وانفخ صدرى عزة وقوة حين تقع عيناى على جنود الجمهورية فى الاستعراض الكبير تهتز لهم الارض وهم يدقونها بأحذيتهم الثقيلة على أصوات الطبول وأنغام الموسيقى ! .

وطالما أرهفت أذنى ـ صبيحة كل أحد ـ الى نواقيس كنيسة القديس فرديناند فى الجهة المقابلة من الميدان ، واشعر بما يشبه الغيرة وأنا أتطلع من النافذة فألمح جيراننا وقد تأبطوا أذرع نسائهم وامسكوا بأيدى أطفالهم ، الجميع فى أبهى زينتهم وهم داخلون أو خارجون من الكنيسة يلوح البشر وعلامات الرضا على وجوههم .

فلست اذن جامد الشعور بليد العاطفة ، بل ان بين صدرى ضميرا لايكف عن تذكيرى بذلتى ، ويؤرق نومى ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أرفض ذلك الوسام من أجل أمك حتى ترفع رأسها ومن أجلك أنت أيضا ياولدى ..

ولعلك لم تسمع بعد أننا سنقيم بعد أيام قليلة وفى عيد رأس السنة حفل استقبال كبيرا ، سوف يحضره نحو اثنى عشر رجلا من كبار القوم والشخصيات اللامعة لمناسبة منحى ذلك الوسام ، وسترى ديزيريه كبير الخدم بمطعم بوتيل وشابو مرة أخرى ، وهو يدفع أمامه العربة الفضية الكبرى التى تحمل أطباق المشهيات والأكواب البلورية وسلال الحلوى والبتى فور !.

هل تذكر انك ـ حين كنت صغيرا ـ وتدعوه بصديقك العظيم؟ لأنه كان يختلس الخطا نحو غرفتك من وقت لآخر حاملا اليك بعض الوان الحلوى وصنوف الفطائر ؟.

كان ذلك في الماضي اما الآن فسوف تقف على قدميك معنا وقوف الند للند طويلا رشيقا ، بيد أني أخشى أن يتملكك الخجل والاضطراب ، فهذه هي المرة الاولى التي نسمح لك فيها بشهود حفل استقبال ، وربما لم تعرف مكانك جيدا بين هؤلاء القوم ،وانت تدير بصرك فيهم وفي أنا ايضا ، وفي نفسك انطباعات قد تبدو في عينيك . ولن يستطيع تفسيرها أحد .

أتراك ستصفني بالحماقة والنزق حينما تراني أعانق المدير العام باعتباره عرابي وكفيلي ، فقد جرت العادة أن يكون لكل من يحتفل به من حاملي اللجيون دونور لأول مرة عراب مثل اطفال المسيحيين حينما يعمدون في الكنيسة ، وهل ستسخر مني حينما تسمعني القي خطاب الشكر بقدر ماتعيه ذاكرتي ، وانت تعلم أني لا اكره شيئا في الدنيا مثل الخطابة ؟.

وقد حصل زوج عمتك ، فاشيه على اللجيون دونور أيضا ولم يأته عفوا أو صدقة كما حدث لي ـ وذلك حق ـ بل كافح طويلا وبرز اسمه في الأوساط الأدبية قبل أن يستحقه ، بل انه لشديد ثقته في نفسه ، كان يعلم انه سيناله بكل تأكيد قبل ذلك بأربعة أو خمسة أعوام على الأقل ، فهو من ذلك الطراز من الناس الذي يقدر سلفا كل خطوة يخطوها .

وهو قد بدأ ايضا من أول الدرج : كان أبوه شرطيا برتبة نفر، وأمه حائكة ثياب ، ويقطنان ضاحية فتيلي بالقرب من لاروشيل ، وهي مجموعة من البيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد يقطنها كتبة المصانع والمعلمون وعمال السكة الحديد وعجائز النساء ممن يتكسبن من اعطاء دروس البيانو والموسيقى ، واذكر اني زرتها في صباي ورايت الرجال يعملون في حدائق منازلهم الخلفية .ونساؤهم يثرثرن من فوق الحواجز والأسوار .

لاتحسبني أحتقر الطبقات الدنيا ، او احط من قدرهم ، على

العكس، انني لأحترم فيهم طموحهم وكفاحهم وأحسدهم على نجاحهم بيد انى أستطيع أن أميز أكثرهم مهما ارتفعت مراكزهم فى الحياة بما الحه فى نظراتهم من عداء سافر وكراهية عميقة لمن هم دونهم؟ ذلك لأن ما يدفعهم ويحثهم على التقدم والتفوق ليس مجرد الرغبة فى المناصب ، بقدر حرصهم الشديد ولهفتهم القوية فى التخلص من شيء يشدهم ويجذبهم الى القاع ، فما يكاد الواحد يجد الفرصة قد سنحت له ليطفو فوق السطح حتى ينفض ثيابه اشمئزازا مما علق به من أدران الماضي ، ولا يتطلع الى من خلفهم وراء ظهره الا شزرا ، بل ان عقدة النقص التى ترسبت فى اللاشـــعور من عقله تجعله يقسو فى المعاملة على من يسوقه سوء الحظ فيعمل تحت امرته ، وكأنه ينتقم مما شاهده ولقيه فى طفولته .

وكثيرا ما ساءلت نفسى هل كانت أمك أسعد حالا مما هى الآن لو تزوجت رجلا مثل فاشيه ؟ أما كان كل منهما يعضد صاحبـــه وتتضافر قواهما فى شق طريقهما نحو النجاح ؟.

ولا أستطيع أن أخدع نفسى أو أضعها فى غير موضعها ، فانى أعلم تماما أن طراز أمك من النساء لا يتلاءم معى ، وكان يجـدر بى أن أبحث عن امرأة بسيطة محدودة المواهب تلزم بيتها قانعة بادارة شئونها المنزلية ، وتجيد طهى أصناف الطعام ورعاية الأطفال ، امرأة مثل السيدة ترمبلى ، أو ترانى مخطئا اتشبث بالخيالات والأوهام؟ وهل هى سعيدة بزوجها حقا ؟ .

وبفرض ان والدتك كانت قد تزوجت فاشيه أما كانت تستقل فى اشباع طموحها نحو الشهرة والمجد ، فى ميدان يختلف تمـاما عن ذلك الذى لمع نجم زوجها فيه ، ولا تلبث عاجلا أو آجـــلا أن تنشق عليه ، وتضرب بذلك الاحمق عرض الحائط؟.

هذا يذكرنى بما حدث هذا المساء .. فلقد سمعت صوته ـ وانا أعرف صوته جيدا ـ يتحدث فى همس مع والدتك أمام الباب الخارجى ويقول لها : الن يخرج آلين معك ؟.

ـ انت تعرف آلين اكثر منى لو استطعت ان تحرك جبلا لكان ذلك أيسر من أن تجعله يخرج من البيت بعد العشاء !.

وليس غيرنا فى الشقة الآن انا وانت ، ولا ينبعث أى ضوء الا من غرفتك ومكتبى وباقى الغرف تسبح فى ظلام دامس ، انت تجلس أمام قمطرك تقرأ وأنا اجلس أمام مكتبى أحاول الكتابة ، وهأنذا أسمعك فى هذه اللحظة وانت تنطلق نحو الثلاجة الكهربية وتفتحها لتعد لنفسك كوبا من الليمونادة وبتقدير الزمن الذى قضيته فى المطبخ ، عرفت انك قد وقعت على بعض الصحاف التى سال لها لعابك شريحة من اللحم البارد أو ربما قطعة من « الجاتوه » !.

وتوقعت ـ وأنا امسك انفاسى ـ أن تجىء الى غرفتى فنتبادل بعض الحديث ونسرى عن نفسينا ، فلا شك أنك قد رأيت الضوء ينبعث من تحت عقب بابى فى اثناء مرورك به ، ولكنك ـ اكبر الظن كنت متأثرا بما اعتادت أمك أن تنبهك اليه دائما من عدم اقتحام خلوتى حيث أكون مشغولا فى عملى ـ فخشيت أن تغضبنى وتقطع على تفكيرى !.

وانى لأعجب مما انتابنى هذا المساء ، فأنا أشعر ببعض الاضطراب وانا أكتب كل ذلك الهراء محاولا عبثا أن أبطىء ما استطعت قبل أن أصل لتلك المرحلة الحاسمة من قصتى ، والتى اراها تقترب منى برغم أنفى بخطوات حثيثة ، انها يا ولدى أهم ما فى رسالتى اليك ، بل هى السبب المباشر فى كتابتها لك .

ولكنى ـ وقبل ذلك ـ ارى نفسى مضطرا الى تذكيرك بحادثة صغيرة ، أرجو ألا تترك فى نفسك انطباعا بأنى أحاول اثارتك ضد والدتك ، حدث ذلك وأنت فى فرقتك الخامسة ، وحتى ذلك الحين ، وانت الأول دائما فى فرقتك خلال مراحل تعليمك ، اللهم الا نادرا حينما يشتد التنافس ويخونك الحظ فتحتل المركز الثانى فى الترتيب ، ثم يشتعل حماسك فتعود لتحتل المركز الأول !.

وكنا نحرص فى نهاية كل عام على أن نحتفل بتفوقك ونقدم لك هدية ثمينة على سبيل التقدير والتشجيع !.

ولست أدرى كيف شعرت فجأة بأنك على غير عادتك ولست على مايرام ذلك العام ؟ ربما حاستى السادسة هى التى نبهتنى لذلك ، أو عن غريزة مكتسبة مما جربته فى صباى ، ومن ثم فقد أدركت

أنك تعاني قلقا نفسيا ، أكبر ظني أنه يعود لحاجتك الشديدة لشيء من الرياضة والراحة والاسترخاء الذهني ، فقد لاحظت أنك تركز جل فكرك واهتمامك في الاستذكار والتحصيل دون أن تقدر لبدنك حقا .

وكنت قد تعرفت في أثناء اصطيافنا ـ في العام السابق ـ بأراشون ببعض الأولاد وكانوا يمتلكون زورقا ، فطلبت مني أن تكون هديتي لك في عيد الميلاد زورقا مثله ، ولكن أمك سارعت بلا حق تعارضك في خشونة ظاهرة وتقول :

ـ ما أسخف رأيك ! أتطلب هدية لعيد الميلاد لن تفيد منها الا في الصيف القادم وبعد ستة شهور كاملة ؟ ثم اين نستطيع ان نحتفظ به في باريس ؟ أنضع زورقا في شقتنا ؟ فكر في هدية أخرى تناسب عيد الميلاد أما الزورق فعليك أن تشمر عن ساعدك وتجد وتكد في الاستذكار ، وسوف نشتريه لك في الصيف القادم ليكون هدية تفوقك ونجاحك !

وفي رأيها أنك حتى تستحق الجائزة ينبغي الا تفوز بأقل من المركز الثاني ، ولا شك أنها معذورة في هذا ، فأنت الذي عودتها بنفسك ذلك .

وكنت ـ قبل امتحانك بشهر كامل ـ قد ذهبت لأتفرج على الزوارق في ميدان الجيش الكبير ، وطلبت منك مرافقتي حتى أتيقن الطراز الذي تحبه وترغب فيه .

ـ هل هذا ما تريد ؟

فقد أومأت الى زورق متوسط الحجم مصنوع من الأليمونيوم المذهب ، ولاحظت ـ لشدة دهشتي ـ أنك كنت فاقد الحماس بشكل واضح ، فقد بدا عليك الوجوم والتفكير والحزن ، كما لو كنت تشير الى تابوت لا الى هدية ثمينة تمنيت الحصول عليها !

وذات مساء ونحن على مائدة العشاء سمعتك تقول وفي صوتك رنة ألم وأسى :

ـ من المؤكد أنني لن أكون على رأس فرقتي هذا العام ، لقد خانني الحظ في اللغة اللاتينية .

وانفجرت أمك غاضبة متوعدة :
ــ أما حذرتك مرارا ونبهتك الى أنك لاتبذل أقصى جهدك فى استيعاب الدروس ؟
ومع ذلك كنت قد اشتريت لك ذلك الزورق ، وتركته فى المتجر بعد أن وعدتهم بأنى سأخطرهم تليفونيا بالموعد والمكان اللذين سيتم فيهما التسليم .

وحينما ذهبنا الى حفل توزيع الشهادات والجوائز الذى تقيمه المدرسة آخر كل عام ، والذى اعتدت أن أشهده برفقة والدتك ــ مع قلة من الآباء يحضرونه ــ تبين أنك لم تحرز الترتيب الأول ولا الثانى ، بل أحرزت السادس !

وما زلت اذكر لحظة أن خرج ثلاثتنا من باب مدرسة الليسيه كارنو صامتين وكأن على رءوسنا الطير ، وعندئذ كنت أتلهف على أن أمسك يدك ، وأضغط عليها مواسيا مشجعا لأبعث فى نفسك شيئا من الثقة والطمأنينة ، ولكنك كنت بعيدا عنى بجسمك وقلبك ، وكانت أمك بيننا لم تنبس بحرف واحد حتى وصلنا باب بيتنا فى ميدان ماكماهون ، وعندئذ نظرت اليك بعينين ينبعث منهما الشرر :
ــ لا أظنك تفكر الآن فى الحصول على ذلك الزورق يا جان بول ؟
ولم تنبس ببنت شفة ، بل شمخت بأنفك فى الهواء ومضيت لا تلوى على شىء .
وحين انفردت بوالدتك بدأت أدافع عنك . ولكنها قالت فى بحزم :
ــ تستطيع أن تفعل ما يحلو لك ، فأنت أبوه ، أما الأمر بالنسبة لى فهو مسألة مبدأ ، فذلك الزورق ما هو الا مكافأة كان سينالها نظير القيام بعمل ما ، وهذا ما تم التفاهم عليه بيننا وبين جان بول ، وهو الذى قد أخل من جانبه بهذا الاتفاق المبرم بيننا ، ولم يفشل فقط فى اللاتينية ، بل حصل على درجات مخجلة فى بعض المواد الأخرى . فاذا ما عودته أن فى وسعه أن ينال شيئا نظير الكسل والاهمال فلن تخلق منه رجلا يحقق النجاح بقوة ساعديه ، أو يشعر

بطعم المكافأة مقابل الكفاح والعرق ، بل سيكون شأنك شأن الدبة التي قتلت صاحبها الذي تحبه!

وعندئذ ومرة أخرى فهمت وجهة نظرها ، وربما لم تخطيء في ظنها أو يجانبها الصواب في صدق رأيها ، ومع ذلك فقد انطلقت الى غرفتك ، حيث كنت منكبا فوق مكتبك تتظاهر بقراءة احدى الروايات ..

قلت لك بصوت خفيض :

- لا تبتئس فسوف تحصل على هديتك !.

فأجبتني وانت تنظر الى نظرة تمثلت فيها الرجولة والنضج وقد خيل الى أنك حزين من أجلي :

- لا تفعل ذلك يا أبتاه !

- صه! فستري زورقك في انتظارك حالما تصل الى اراشون!.

- لا ، لم أعد بحاجة اليه .

وفهمت وجهة نظرك ايضا ، اجل .. فهمتكما معا ، انت ووالدتك .

وظل الزورق خمسة عشر يوما ملقى في حديقة الفيلا التي اعتدنا استئجارها كل صيف في أراشون دون ان تلقى عليه نظرة واحدة .

كان يؤلمك ويحز في نفسك انك لا تستحقه .

اقول لك ذلك لأن أبي أهدى الي زورقا انا الآخر ذات يوم ، وبالرغم من أني لم أكن جديرا به فقد قبلته بلا تردد ، بل قد استخدمته في شق طريقي وسط الأمواج العاتية حتى وصلت بر الأمان .

ومن أجل ذلك .. انطلقت وانا فيما بين العشرين والثلاثين أقتل نفسي في العمل الشاق دون ان اتيح لها أية فرصة للمسرات .

كان ذلك حتى أعوض ما فاتني ، وأؤكد لنفسي - قبل أي مخلوق آخر - انه لولا فضل ابي على ما استطعت ان اجلس الآن لاسطر لك هذا ، ولربما كان قد تغير وجه التاريخ بالنسبة لاسرة لافرنسوا !

الفصل الخامس

كنت فى مثل قامتك، انما اعرض منك قليلا عند الكتفين. لأنى حينما كنت فى مثل قامتك — اكبرك بثلاثة أعوام، واليك فى ايجاز شديد ما أعرفه عن أسرتى واسرتك .

وكبداية لحديثى وفى نظرى من الأهمية بمكان أن تعرف أنى لم أنعم فى طفولتى أو صباى بالاقامة فى منزل خاص أو شقة نملكها مثل باقى الأطفال، بل فى مساكن حكومية يختلف اتساع حجراتها ويتباين اثاثها وفراشها أيضا من البسيط الى الفاخر من الرياش كلما تنقل أبى من منصب لآخر أرفع شأنا .

وحين ولدت أنا — كان أبى فيليب لافرنسوا — الذى لم يتجاوز التاسعة والعشرين ويحمل الدكتوراه فى القانون — قد بدأ — منذ وقت وجيز — حياته الادارية، وشغل منصب السكرتير العام لمحافظة « جاب » فى مقاطعة الألب العليا، ثم — وأنا فى الثالثة من عمرى — كان وكيلا لمحافظة ميلو والافيرون، ثم صار بعد ذلك وكيلا لمحافظة جراسى حيث عرفت المدرسة لأول مرة فى حياتى .

وقد تدرجت بعد ذلك بين الليسيه فى مدينة بو، ثم ليسيه فينلون، وأخيرا فى لاروشيل حيث استقر مقامنا بها حوالى سبع سنوات متوالية، ولعل هذه المدينة الأخيرة هى الوحيدة التى أتاح لى طول المدة، ان أعرفها فى طفولتى، اما ما عداها واقمنا فيها من قبل فلسنت اذكر عنها الا ملامح خفيفة أشبه بالأطياف لقلة مقامنا بها .

ما كنت أكاد أهنأ بدار جديدة وأعتادها وانظم حاجاتى ولعبى فى غرفتى، وأبدأ احبها، وآلف أساتذتى ومعلمى فى المدرسة، واتعرف الى رفاق وأبدأ معهم صداقات جديدة حتى يصدر أمر نقلنا الى محافظة اخرى بمسكن حكومى جديد وغرف أخرى ووجوه تختلف تماما عما اعتدتها .

وهناك فى لاروشيل تزوجت شقيقتى آرليت بيير فاشيه الذى كان كما أخبرتك سابقا رئيسا للمستخدمين فى مصلحة الأشغال

العمومية ، ولم يجد العروسان الصغيران بيتا ملائما ينتقلان اليه ، أو لعلهما قد زعما ذلك رغبة فى الاقتصاد والتدبير ، فشاركانا فى الاقامة فى الطابق المخصص لسكنانا فى دار المحافظة .

واستطيع أن ازهو امامك بأبوى .

فذلك القصر القديم الكئيب الذى فتحت عينيك لترى جـدك وجدتك يعيشان فيه بضاحية «لوفيسينيه» كذلك مظرهما البسيط وحياتهما الهادئة المتواضعة بعد أن بلغا من الكبر عتيا ، كل ذلك ليس كافيا حتى ترسم فى نفسك صورة كاملة عنهما .

ولن أغوص بك بعيدا فى اعماق الماضى البعيد : فى الواقع ليس ابعد من أوربان لافرنسـوا جد ابى الذى عاش فى الفـترة ما بين « ١٨٢٣ - ١٨٩٩ » ولعل من المثير أن تعرف أنه كان صديقا حميما لمشاهير العظماء ممن خلدهم التاريخ ، أمثال فكتور هوجو ومارتين وجورج صاند واسكندر دوماس الكبير ، ومازلت أحتفظ بكثير من الخطابات المتبادلة بينه وبين أولئك وغيرهم من رجال الفنـــون والآداب .

واذا كنت قد رأيت صورة للدوق دى مورفى فهى صورة طبق الأصل لجد أبى .

وتستطيع أن تتخيله وهو فى ثياب الامبراطورية الثانيـــة الموشاة . وهو يتردد دائما على البلاط ، حيث كانت الامبراطورة يوجينى تميل لصحبته وتسعد بحديثه وفكاهته ومداعباته المرحة، وكان ينفق من دخله الخاص - شأن سراة القوم ونبلائهم فى ذلك العصر مسرفا الى حد التبذير على حساب هدم رأس ماله ، ومن حسن حظ ابنائه أنه كان مفتونا بهواية شراء اللوحات الزيتية التى يرسمها أصدقاؤه الرسامون ، وحين مات كانت تلك اللوحات أغلى ثمنا وأرفع قيمة من الفدادين القليلة التى خلفها وراءه مثقـــلة بالرهون والديون .

ولقد رآه أبى فى ايامه الاخيرة ، وتأثر بما كان يعيش فيه جده من ترف وبذخ ، وسمعته يفخر أمامى بأن جده كان احد أعضـــاء نادى « الجوكى » الذى كان مجرد الانتساب اليه شرفا عظيمـــا وفخرا كبيرا ..

وفى نظري ، وأنا من جيلٍ يسبق جيلك ، انى يشق على أن اتصور حياة الفراغ التى كان يعيشها امثال هؤلاء الناس عاطلين بلا عمل ، لا شاغل لهم سوى الاغتراف من ملاذ الحياة والتمتع بمسراتها .

وكان يمتلك بيتا قرويا صغيرا من طراز القرن الثامن عشر يتوسط فناء كبيرا فى شارع دى باك ورثه جدى وأقام فيه طول حياته . ولقد اخذتك ذات يوم لتراه ، أتذكر ؟ ذلك البناء الأثرى الذى يتوسطه محلا لبيع الأنتيكات على اليسار ، ومكتبة قديمةالى اليمين . وله باب ضخم مدهون بالاخضر الغامق اذا دلفت منه.مررت تحت قنطرة ذات أعمدة بها غرفة البواب ، ثم سرت فوق الممشى الى الفناء الكبير المرصوف بالحجر المربع الملون ورأيت شجرة الليمون الكبيرة التى توسطه .

أما المنزل الذى فى الجانب البعيد والذى يبدو وكأنه عش غرام منعزل عن العيون،فانى أعتقد أنه قد شيد خصيصا ليضم بين جدرانه الرقيقة الحانية محبوبة لأحد النبلاء الارستقراطيين أو ربما لأحد قادة الجيش من الجنرالات العظام الذين انحدروا من قلب الريف وعرف عنهم شدة الغيرة على من يتملكون من الغانيات ، وعلى الأخص حين تجول بين غرفه المشمسة الواسعة ذات الشرفات الكبيرة التى تحمل أحواض الزهور الساحرة ، وتصل الى غرفة الجلوس ومنها الى مكتب جدى .

وخشى ، اذا ما وصفت لك جدى ارماند لافرنسوا ، أن تحسبه أحد تلك الشخصيات الهزلية التى تبعثك على الضحك . فلا بد أنك شاهدت بعض الأعداد القديمة من مجلة « الحياة البارسية » وما اعتادت أن تبرزه بين صفحاتها من حين لآخر من الرسوم الكاريكاتورية التى تمثل « أيام زمان » : أولئك رجال مشدودو القوام شعرهم طويل أبيض ناصع ، وشواربهم كثة مصبوغة ، والمونوكل يلمع فوق أعينهم ينظرون من خلاله فى كبرياء واستعلاء ، وقد ارتدوا الصداريات ذات الذيل الطويل من الخلف والمفتوح من الأمام ، فوق سراويل حريرية ملونة ضيقة عند الركبتين !

تلك هى — باختصار — صورة جدى ، اذا أضفت اليه ان

شعر راسه لم يكن غزيرا وقددب صلع خفيف فى المقدمة كان يحاول جاهدا اخفاءه بتمشيط شعر الجانبين فى المنتصف!

ارستقراطى عجوز كما سمعتهم يطلقون عليه ، ماتت زوجته الشابة وتركته فى مقتبل العمر ، فمضى يسرى نفسه ويبحث عن السلوى على نطاق واسع حتى حينما بلغ السبعين كان ما يزال فيه بقية من فتوة ونشاط .

لكنه لم يكن عاطلا مثل ابيه ، فقد عكف على الدرس والتحصيل فى همة وقوة حتى حصل على أعلى الشهادات فى الاقتصاد السياسى ثم لمع نجمه وشغل ارقى المناصب فى ديوان المحاسبة .

كل ذلك قد يكون ثقيلا على نفسك ، يبعثك على السأم والملل ؟ أعرف ذلك جيدا ، ولكنى قد أخبرتك سلفا بأن ذكرى الانسان تعيش مائة عام ثم تندثر ، ولم يمض الا اقل من عشرين عاما لا غير منذ أن توفى جدى فى السنة التى تزوجت فيها ــ وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، ومن ثم أجد صعوبة فى رسم صورة حية له أمام عينيك .

وما من شك فى أنه كان قليل الكلام ، جامد الوجه ، يفخر بأنه يستطيع أن يمتلك زمام عواطفه فلا تكشف ملامحه ما قد ينطبع فى نفسه من انفعالات ومشاعر ، واذكر ذات يوم حين كنت فيما بين العاشرة والحادية عشرة من سنى حياتى ، ان غلبنى البكاء فى حضرته ، فما كان منه الا أن وضع المونوكل فوق عينه وحدجنى بنظره مقطبا حاجبيه ، ثم رمق أبى بنظرة لوم وعتاب .

اتراه كان يعانى آلام الوحدة خلال الاعوام العشرين الأخيرة من حياته ؟ فقد كان يعيش وحيدا فى عشه الصغير الا من طباخة عجوز ــ ليونتين التى خدمته طوال حياتها ــ ووصيف يدعى اميل ابن أحد الزارعين القدماء .

وكان ما ورثه عن أبيه من مال قليل قد ذاب ، كما يذوب الجليد تحت الشمس الحارة ، ولم تبق الا تلك اللوحات الزيتية ، ولم يكن ثمنها قد ارتفع بعد ، أما البيت الذى يقيم فيه فى شارع دى باك فقد كان مثقلا بالرهون ، تستغرقه الديون الى آخر مليم من ثمنه !

ومع ذلك ، فقد استطاع أن يحتفظ بكرامته وكبريائه الى آخر لحظات حياته ، ومن بينها السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها فوق مقعد متحرك على عجل .

هل كان يعلم بما حدث في عام ١٩٢٨ ؟ لا أدرى ! بيد أني متيقن من أن أبي لم يذكر له شيئا اطلاقا وبرغم ذلك فأكاد أقسم أنه حدس وشعر ، وحملني كل التبعات والقى على اللوم ، فقد تغيرت نظرته نحوى ، واتخذت طابعا من البرود وعدم الاكتراث الشديد .

وكان يحمل هو أيضا ــ مثل السيد مدير شركة التأمين ــ وسام الشرف من طبقة فارس ، كما كان يحوز في الوقت نفسه عددا من القلادات والنياشين التي منحته اياها كثير من الدول الأخرى ، التي انتدبه اليها لاستشارته في أمور المال والاقتصاد .

والشباب يا ولدى كثيرا ما يخدعون في أمثال هؤلاء ممن يرتدون قناعا فوق وجوههم ، يكرهونهم قبل أن يحاولوا النفاذ الى ما وراء ذلك فيصلوا الى القلب الأبيض الممتلىء طيبة وحبا .

اما وقد مضى سبعة عشر عاما على وفاته ، فأنا أشعر بالأسف لأني لم أوجه اليه أسئلة معينة فلا شك في أنه وقد حنكته التجارب والأيام ، ورأى كثيرا من صنوف الناس والحياة لا شك في أنه كان على ذكاء كبير وتفكير عميق ، وكان في وسعه أن يقود نفسي الضالة الحائرة الى بر السلامة والأمان ويجيب عن أسئلتي !

وربما كنت مخطئا في أوهامي فما من والد الا ويتمنى لو استطاع أن يفرغ عصارة قلبه وخلاصة تجاربه في عقل ولده حتى يحميه ويؤمنه على مستقبله من مفاجآت الزمن وأحداثه ، ولولا ما ورثته ايانا الأجيال الماضية من ينابيع الحكمة والمعرفة التي حمل أجدادنا مشعلها منذ آلاف السنين ، وتناقلتها السواعد الفتية من جيل الى جيل ما قامت على أرضنا مدينة ولا حضارة ، ولظللنا نقيم في أغوار الكهوف وأعماق الجبال !

كان الفارق بين جدى وجدك كبيرا ، انه الفارق بين ذلك العش الصغير الجميل بشارع دى باك والذى لم يعد لنا منذ أمد طويل ، وسوف يهدمونه ليقيموا مكانه دورا حديثة ــ وبين فيلا ماجالي ؟ بل انه الفارق بين ذكريات طفولتي وذكريات طفولتك !

كنت أجد جدى جامد القلب بارد العاطفة .

كذلك لا بد انك رايت فى ابى قطعة اثرية مهملة ، نسج عليها عنكبوت النسيان خيوطه فى ظلال تلك الحياة المملة فى فيلا ماجالى ، وهنا أختلف أنا معك ، فهو فى نظرى - لا لأنه أبى ، بل للحقيقة والتاريخ - هو فى نظرى المثل الأعلى فى الوفاء والحب والتضحية ، لم يفكر فى عدم الوفاء لزوجته المريضة ونذر نفسه لرعايتها فى ايمان واخلاص حتى لفظت آخر انفاسها راضية سعيدة .

ولأنهما لم يظهرا الا على هامش حياتنا فقط ، ولم تتوطد صلاتنا بهما لبعد الشقة بيننا وبينهما ، باعتبارهما جيلا ثانيا بالنسبة لى ولك فنحن لا نراهما الا اشباحا غير واضحة ، وخطوطا باهتة لا تثير فينا شديد اهتمام . دون ان نتذكر أن كلا منهما لا بد قد كان ، فى آيام عزه وعنفوانه ، نجما يلمع فى السماء ، وتتركز عليه الأضواء .

وربما حين تجلس بين أبنائك وجفدتك ذات يوم وتستعيد معهم ذكريات الماضى .. تحب أن تذكر لهم شيئا عن جدك الثانى - والد أمى لوسيان آيفارد - الذى لا شك انك قد قرأت عنه فى دراساتك ، فقد كان رجلا ذا اهمية كبيرة فى المجتمع الدولى .

فبينما كان جدى لافرنسوا قد نجح فى شق طريقه فى السلك الادارى تحت ظل الجمهورية ، كان جدى آيفارد يلعب دورا هاما فى السياسة الدولية حينما كانت وظيفة السفير أعظم مناصب الدولة على الاطلاق .

أتعلم أن أمى لم تهنأ قط بالاقامة فى منزل دائم منذ ولدت الى أن أقامت فى فيلا ماجالى بضاحية لوفيسينيه ؟ فلقد كانت تتنقل من سفارة لأخرى فى عواصم الدنيا ، ثم بعد أن تزوجت ابى ظلت تتنقل معه بين مختلف المحافظات الفرنسية منذ أن احتل فى شبابه منصب السكرتير العام حتى غدا محافظا مرهوب الاسم والجانب فلقد ولدت أمك فى بكين - وتعلمت القراءة فى احد اديرة بيونس ايرس قبل أن تذهب الى استوكهولم وروما ثم برلين .

وكذلك كانت أمها من قبل . ولدت على أرض أجنبية ، وكان اسمها (كونسويلو كافيز) ابنة وزير كوبا المفوض فى لندن ، وهناك تقابلت مع جدى فى احدى الحفلات الدبلوماسية حين كان يعمل سكرتيرا لسفارتنا .

وانني ــ مثلك يا ولدى ــ أكاد أكون خالى الذهن تماما عن ذلك الطراز من الحياة التى لم تشهدها عيناى والتى لا شك فى أنه قد أصابها كثير من التعديل منذ تلك السنين الماضية حتى الآن .

وأذكر انى قرأت ذات يوم مذكرات جدى لوسيان آيفارد وهو مجلد كبير من جزأين طبعه أحد كبار الناشرين فى (فوبورج سان جرمان) ، وأطرف ما فيه ذلك الباب الذى يضع فيه الحلول لمشكلات الشرق الأوسط ، وكذا الجزء الذى يلقى فيــه كثيرا ومزيدا من الأضواء على سياسة الداهية بسمارك فى الملاحة لمسألة دول أمريكا اللاتينية مما يؤكد عمق تفكير جدى وأهمية الدور الذى لعبه على مسرح السياسة الدولية ، ولقد وقفت طويلا عند تلك الفقرة التى يقول فيها :

« كانت لنا مصادرنا الأمينــة الخاصة التى تزودنا بالحقــائق المجردة الخطيرة ، وتمدنا بسيل لا ينتهى مما يدور خلف الكواليس وبين ردهات القصور وجدران المكاتب الصماء التى يقف على أبوابها الحراس المدججون بالسلاح من أحاديث سرية حتى لا نفاجأ فى أى وقت بما ليس فى الحسبان . ولقد كان من واجبنا أن نبتسم فى وجوه ألد أعدائنا : نظهر خلاف ما نبطن ، ونضحك ملء أفواهنــا فى أشد الأزمات وأحرج الأوقات ، ونقيم حفلات الاستقبال . وهناك بين الرقصات وكئوس الشراب وغمزات الأعين ورنين القــــلات وعبارات المجاملة والترحيب ، تحاك أخطر المؤامرات السرية ممزوجة بقصص الحب والهيام ! » .

ولم تكن أمى وشقيقاتها ــ بحكم اختلاطهن ــ غارقات لآذانهن فى تلك الحياة الصــاخبة فحسب ، بل كانت ــ جدتك ــ تلعب أهم الأدوار والمعها على مسرح السياسة العالمية فى عصر فيه كثير من العروش الضخمة على الزوال والانهيار ، ولم تكن اسماء ادوارد السابع وليوبولد الثانى والقيصر أو الارشيدوق العظيم بالنسبة لها

مجرد أسماء تتردد في الصحف أو بين كتب التاريخ ، بل مخلوقات من لحم ودم كثيرا ما ظهرت اسماءهم من بين طالبي مراقصاتها .

ومن المؤكد أن جمالها كان فاتنا ، ولوحتها الباستيل المعلقة على جدار غرفة مكتبي تشهد بذلك ، ولكن أهم ما كانت تتميز به هو روحها المرحة وجرأتها المذهلة ، مما جعلها ألمع واشهر نجوم المجتمع في ذلك العصر ، وكان ذلك منها امرا شاذا غير مألوف بالنسبة لعادات وتقاليد تلك الأيام ، التي كانت تتسم بكثير من التحفظ وخاصة بالنسبة للنساء .

وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها ، عندما شغل أبوها منصبا خطيرا في وزارة الخارجية ، وفي تلك الأيام جمعها القدر مع أبي الذي كان يكبرها بأربعة أعوام .

وكانت شقيقاتها جميعهن قد تزوجن وقرن في بيوتهن ماعداها وعرف الناس جميعا أنها لن تتزوج أبدا لأنها فتاة طائشة جموح تملكها الغرور ، ولن يقدر أحد على كبح جمالها ، وأنها لن تسلم قيادها أو قلبها لأي انسان !

ثم وقعت تلك الحادثة المؤسفة والتي أخبرتني بها شقيقتي ، ولست ادري من أين عملت بها وعن اي طريق ؟ فمن الثابت أن احدا لم يذكرها على لسانه قط في بيتنا .

كانت المبارزات شيئا نادرا في عام ١٩٠٣ بل حرمها كثير من القوانين ، وان وقعت في بعض الظروف فبنسبة اقل بكثير مما إعتاده الناس في أواخر القرن الماضي حين كان المسدس والسيف أو الخنجر هو أسهل الحلول لكل المشاكل مهما اختلفت أنواعها بين أفراد الطبقات النبيلة .

وفي تلك السنة لقي أحد من تعرفهم ــ امي وهو كونت ايطالي ــ حتفه في مبارزة بالسيف ، وأكبر ظني أن المسألة بدات في ملهى مكسيم ، وفي احدى السهرات الصاخبة حين مضى أحدهم يلقي بعض الفكاهات اللاذعة التي تمس سيرة ابنه السفير آيفارد وكان المتحدث احد نبلاء دول البلطيق .

وشهدت غابة (ميودو) في ساعة مبكرة ذات صباح ، مبارزة لم تستغرق سوى دقائق ، التحم فيها سيفان ، ثم كانت الخاتمة

السريعة حينما طعن النبيل البلطيقي ـ غريمه الكونت الايطالي طعنة نجلاء مات على اثرها ، واضطر أن يغادر باريس على عجل ، وظل محروما من رؤية أبوابها حتى بعد الحرب العالمية الأولى .

أما في ايطاليا فقد أعلن الحداد على الضحية المسكينة ، وكان لمقتله صدى كبير ، ولست أدري هل الأسرتان مازالتـا تحتفظان بذكرى ذلك الحادث الأليم ؟ وهل ترى يقص العجائز والشيوخ على أولادهم وحفدتهم في ليالي الشتاء قصة جدتك والدور الذى لعبته بطريق غير مباشر في حياتهما ؟.

ولعلك سمعت أمك ـ حين يثور بيننا نقاش لسبب ما يخرجها عن طورها ـ وهي تهتف في حدة :

ـ أراك تـتـداوم على تسـفيه آرائى لأنى لست من أسرة لافرنسوا !

أو تحدجك ببصرها ـ في بعض الظروف ـ حين تشمخ بأنفك في وجهها عزة وكبرياء ، فتقول لك غاضبة : ـ حقا انك لمن اسرة لافرنسوا !

فمهما حاولت لن تستطيع أن تنسى أنها انحدرت من قوم بسطاء لم يكن لهم شأن كبير في المجتمع ، ومن ثم فهى تكن لى ـ بدون قصد في أعماق لاشعورها الباطنى ـ ضغينة خفية ، تطفو في المناسبات غير السارة فتبعث فيها اعتقادا بأنى أزدريها لذلك السبب برغم أنى ـ وأؤكد لك ذلك ـ لا أعير هذا الأمر أدنى اهتمام . وذلك الحسب والنسب الذى يقف دائما شبحا بيننا ـ أنا نفسي ـ أود من أعماق قلبى لو انساه ولا فضل لى فيه !.

وليس ثمة شك في أن أى زواج لايعنى مجرد ارتباط شخصين لا غير ، بل هو في الحقيقة اندماج أسرتين وعشيرتين لكل منهما تاريخها وأخلاقها وطباعها ونظام حياتها ، ولابد من حدوث اصطدام بينهما ليتم التمازج المطلوب ، ولابد من أن يتغلب الطرف القوى منهما على الضعيف ، فيسير في ركابه ، ومن ثم تتراجع العشيرة الضعيفة بين الظلال ولاتلبث حتى تختفى في زوايا الاهمال والنسيان ولكن بعد ان يتخلف عن ذلك الصراع الخفى شعور بالمرارة ثم يزول بمضى الاجيال .

ولم اكن أعرف ذلك ، ونحن فى مدينة كان ؛ بل ولم أفكر فيه بتاتا ، واستطيع أن اعترف صراحة بأنى ادركت ذلك للمرة الأولى ؛ وشعرت بأنى سليل أسرة لافرنسوا واحمل اسمها ، حين ولدت أنت ، وصفعتنى الحقيقة التى لامفر منها من أنه سيكون لى وريث يحمل اسمى واسم الأسرة من بعدى !.

ولم تكن الهوة التى تفصل بين ابى وامى بمثل اتساعها بينى وبين أمك ، كان الأولان من «عالم» واحد ، بينهما تكافؤ فى المركز الاجتماعى ، وكلاهما كان يبرز اسمه فى عمود الاجتماعيات اليومى بالصحف السيارة من أمثال «الجولوا » والفيجارو ، باعتبارهما من البارزين واللامعين فى المجتمع الذى تهتم الطبقات الاخرى بتتبع انبائه .

كانت هناك بعض الفوارق الهينة ــ بلا ريب ــ وكان آيفارد قد أنفق جزءا كبيرا من ثروته وتضاءل رصيده عن ذى قبل ، وخاصة بعد أن زوج أربعا من بناته ودفع لكل منهن دوطة كبيرة تناسب مقامه كسفير معروف ، لكنه مع ذلك ظل محتفظا بمركزه ومهابته فى نظر الخاصة والعامة فى الوقت الذى كان فيه لافرنسوا العزب يمثل الطبقة الارستقراطية القديمة بثيابه التقليدية المضحكة .. ونفخته الكاذبة .

وكان أبى ــ بعد أن انتهى من دراساته فى القانون ــ قد اختار لنفسه الانخراط فى سلك الوظائف الادارية داخل فرنسا ، لاشباع هواية خاصة فى نفسه وكان فى استطاعته لو أراد أن يشغل وظيفة ممتازة فى الخارج.

وشاءت المقادير أن يتقابل هو وامى فى احدى الحفلات الرسمية الراقصة ، ولم يكن قد مضى على تلك المبارزة وقت طويل ، ومازال صداها يتردد فى كل مكان ، فأحبها .

أرايت اذن لماذا طلبت منك ان تتأنى قبل أن تتعجل فى حكمك على ظاهر الأشياء ؟ فتلك العجوز البدينة المتورمة التى لم ترها قط الا غارقة ساكنة فى مقعدها الكبير ، عيناها مشدودتان للأمام فى نظرات شاردة ساهمة ، كانت فى عصرها اجمل وأذكى بنات باريس وأحدهن لسانا ، بل أشهر من نار على علم ! .

وأعتقد أن أبي ـ الذي كان يصغرها بأربعة أعوام وهو فارق لايستهان به في تلك المرحلة من العمر وكان قد تخرج لتوه من الجامعة ـ لم يكن شديد الاعجاب بها فحسب ، بل بأبيها أيضا .

فقد كان لها ـ برغم تجاوزها فترة البلوغ ـ مئات من المعجبين ممن هم ألمع مستقبلا من أبي ، يتهالكون تحت أقدامها ويلتمسون رضاها ! .

وصارحني أبي ذات يوم قائلا :

أوشكت أن أقبل العمل في السلك السياسي خارج الجمهورية اعتقادا مني أنه قد يرضي أمك ..

فهل كانت قد سئمت السفر والترحال بين مختلف الممالك والدول ؟ ربما ! ولا تنس أنها كانت تنعم في تلك الفترة بمتعة الاستقرار في فرنسا واكتشفت ذلك لأول مرة في حياتها .

وكانت فيلاماجالي ـ هي قصر آل أيفارد الريفي ، وهناك كان ابي يزور خطيبته أيام الآحاد .

وكان أبي جميل الشكل أنيق الهندام قوي البنية ممشوق القوام . اذا قلت أنه ورث الجسم والعقل عن آبائه وأجداده لم أكن مبالغا . وقد ظل محتفظا بكل ذلك حتى بعد أن بلغ من العمر عتيا !.

وما أريد أن أوضحه ، هو أنه كان قد استهواه بريق منصب السفير ومركزه الاجتماعي العظيم ، كما تاق الى دخول ميدان المعمعة واقتحام قلب والدتك ، ذلك الحصن المنيع الذي استعصى على مهاجميه ممن هم أقوى وأخطر شأنا منه ..

وربما كان قليل الأمل في الفوز بيدها اعتقادا بأنه غير جدير بها أو كفء لها ، وظل يحلم بقربها حلم الظمآن للماء ، وكان امتنانه لها كبيرا حينما قبلت أن تكون شريكة حياته دون الناس أجمعين ، واعتبر ذلك نزولا منها وتضحية عظيمة لايستحقها .

هل كانت تشجع بنفسها ذلك الشعور فيه ، لست في موقف يسمح لي بالاجابة عن ذلك ، وليست لدى المعلومات الكافية حتى أستطيع . وأصارحك الحق ، فأنا اعتقد يقينا أنها كانت تشعر بالمتعة حينما تلمس فيه اعترافا بالجميل الذي طوقت عنقه به .. وهي التي عاشت طول حياتها تملأ أذنيها عبارات الاطراء والاعجاب

بجمالها من أكثر من مليونير كان مستعدا لأن يلقى بثروته تحت أقدامها لأول اشارة أو نظرة رضاء ، وانتهى بها المطاف لأن تفضل عليهم شابا تكبله قيود الوظيفة ، محدود الدخل ، تنتقل معه فى مساكن المحافظات الحكومية الرطبة .. وتضطر للانصات الى ثرثرة عجائز الفلاحات وزوجات الزارعين والموظفين بعد أن كانت نجمة تسطع تحت أضواء ثريات الحفلات الدبلوماسية ترمقها العيون فى حسد واعجاب ، حياة غريبة صغيرة تختلف تماما عما اعتادتها .

ومازلت أذكرها وهى فى قمة جمالها ، كانت رائعة حقا كأنها فينوس ، بل ان جمال أمك ليبدو متواضعا بسيطا بالنسبة لها .

ولقد انجبت أختى أولا ، وبعد ذلك بأربعة أعوام انجبتنى ؟ وحينما بلغت الثانية عشرة من عمرى وكنا قد انتقلنا لمدينة « لاروشيل » أصيبت بذلك المرض الخبيث الذى هدم سعادة أبى وحطم آماله !.

كانت فى الخامسة والأربعين وقت ذاك .. وتشهد اللوحات التى رسمت لها فى ذلك الحين ، بأن الزمن لم يترك أى أثر فى وجهها وظلت محتفظة بفتنتها وجمالها ، ومازلت أتذكر انى فى طفولتى ، كثيرا ماكنت أندس بين ذراعيها وأحوط رقبتها بساعدى قائلا :
ــ ما أجملك !.
وكنت أقول لرفاق طفولتى مفاخرا :
ــ امى أجمل امرأة فى الوجود .
فهل أصابتها عين الحسد ، أو لعل نشاطها وحيويتها الـ[illegible]دفقة قد أحدثت خللاً ما فى جسمها القوى ؟.
ومهما كان الأمر ، فقد شعرت ذات يوم بالحمل ، ولابد أنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك مرة أخرى ، الأمر الذى اثار الشك فى نفسها .

وانطلقت لزيارة الطبيب وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامتها المشرقة ، لعلها كانت تخفى مافى نفسها من قلق ، بيد أنها حينما عادت الى البيت كانت كأنما قد هبط قناع مخيف على وجهها .

وما زلت أستعيد فى نفسى ذكريات ذلك اليوم ، كان يوم الخميس

من أكتوبر ، ولم يكن عندنا مدرسة فى ذلك اليوم ، فألحفت عليهـا أرجوها أن تأخذنى معها فقالت :

ـ ليست زيارة الأطباء مما يبعث السرور فى النفس .

وكان رجلا طويل القامة جدا ذاشارب كث صغير ورأس بيضاوى مستطيل ، كثيرا ماشاهدته في حفلات الاستقبال بدار المحافظة..

كانت قد خرجت في الثالثة ، وحتى الرابعة مساء لم تكن قـد عادت ، وتحدث أبى من مكتبه فى التليفون يسأل عنها .

ــ هل عادت ماما ؟.

ــ لم تعد بعد .

وكرر الاتصال والسؤال عنها بعد ذلك مرتين أو ثلاثا ، ولم أكن أعلم وقتئذ أنهما كانا يتوقعان انجاب طفـــل ثالث ، أخ أو أخت جديدة ، وكانت عمتك آرليت فى الخامسة عشرة من عمرها ... تستقبل بعض صديقاتها البنات فى غرفة الجلوس .

وأذكر حينما عادت امى وطبعت على جبينى ابتسامة شاردة،أنها لم تكن وقتئذ على ما يرام ، فسألتها وأنا أرنو الى وجهها العابس:

ــ ماذا قال ؟ أمريضة أنت ؟.

ــ لاتشغل بالك ، أشعر بتعب بسيط .

ــ لقد اتصل ابى عدة مرات يسأل عنك ..

فابتسمت ورفعت المسماع .

ــ فيليب ؟. هأنذا قد عدت .

ويبدو أنه وجه اليها سؤالا ، أجابت عليه بضـــحكة قصـيرة مغتصبة .

ــ كلا ، ليس ماتوقعناه ، أتشعر بخيبة الأمل ؟

ولابد أنه قد وجه اليها سؤالا آخر ، فقـد أجابته فى عجلة :

ــ سوف أقول لك حينما تعود ، ان الين يقف بجوارى ، لا ، لا ، ليس الأمر خطيرا فيما أعتقد .

وفاجأتهما بعد ذلك يتهامسان فى احد الأركان ، وكان الوجـوم يخيم علينا فى العشاء ، وارسلونى لفراشى مبكرا على غير العادة ذلك المساء .

ولم يدر بخلدى وقتئذ انى اوشك ان افقد امى ، او على الاقل امى كما كنت اعرفها ، وان ابى كان على وشك ان يفقد شريكة حياته .

وفى السابع والعشرين من اكتوبر ـ وهو تاريخ لن أنساه وسيظل محفورا فى قلبى ـ انتقلت الى احدى المصحات المحلية، بعد أن قبلت أختى وقبلتنى ، وودعتنا باحدى مداعباتها وفكاهاتها.

ولم يكن ما ظنوه حملا فى بادىء الأمر الا ورما خبيثا وحينما عادت بعد أسبوعين لم يكن قد بدا عليها شىء ظاهر حتى خدعنا جميعا ومضينا نتساءل عن سبب ذهابها للمصحة ، كانت قدعادت لطبيعتها وراحت تتحرك فى نشاط بين أرجاء البيت كسابق عهدنا بها ، ولكنا بعد مضى فترة من الوقت بدأنا نلاحظ تغييرا واضحا يطرأ على ملامحها ، فقد ظهرت التجاعيد فجأة فى وجهها ، وبدا على جسمها الرشيق بعض البدانة والترهل .
وأذكر أنها كانت تقول فى تلك الفترة :

ـ أعلم أنه ينبغى ان أقوم ببعض التمرينات الرياضية ، ولكنى لا أشعر بأى حماس .
واجريت لها جراحة أخرى فى مارس ، وفى اغسطس كانت قد صارت من البدانة بحيث لم يعد أى ثوب من ثيابها يدخل فى جسمها .

ومنذ ذلك الحين وأنا لا أكف عن بحث حالتها مع أصدقائى الأطباء وخاصة مع كبار الاخصائيين الذين يعملون فى المؤسسة معى ، واختلفت آراؤهم جميعا ، كل منهم يعتقد أنه عرف نوع المرض وسببه دون أن يصلوا الى قرار حاسم . ولكنهم أجمعوا على أن تلك البدانة كان محتما حدوثها عقب الجراحتين اللتين اجريتا لها ،وقد اثرتا على وظيفتها الجنسية كامراة ، الأمر الذى كانت نتيجته الطبيعية انهيار مفاجىء فى اعصابها ويأس مرير فى أعماق قلبها.

ومع ذلك كله فلم أجد فيه مايقنعنى ، واشعر انه لم يكن كافيا لاقناع ابى ، واذا كان قد وصل بطريق الحدس والظن الى ماوصلت انا اليه فلابد أنه كان مثال الشجاعة والاخلاص والوفاء اذ ظل انى

بجوارها مضحيا براحته وسعادته وحقوقه كزوج طوال تلك الأعوام التى انقضت حتى ودعها الوداع الأخير

وحانت اللحظة التى اضطرت فيها للاستسلام ، ولم تجد مفرا من أن تنسحب برضائها من الحياة العامة .

وقال أول من جاء من الأطباء لزيارتنا زيارة مفاجئة ، فقد كانت ترفض دعوة أى منهم لفحصها :

ـ نورستانيا سوف تشفى منها بمضى الوقت .

ولكنها لم تشف قط بل مضت حالتها تزداد سوءا ، وراحت فى الأسابيع الأولى تنفرد بنفسها تدفن نفسها بين جدران غرفتها لا تكلم أحدا أو تخاطب انسيا .

ومن ذلك تدرك ياولدى أن الشيخوخة وحدها لم تكن هى سبب تلك النظرات الشاردة الخالية من معانى الفهم والحياة ، والتى روعتك وأخافتك منها ، فقد سبقتك أنا ومررت بنفس تجربتك ولم أكن قد تجاوزت سنك الآن ، وكانت قد انزوت عنا بعيدا فى عالم خاص بها ، وفقدت كل اهتمام بنا أو بأى شىء حولها .

وليس من حقى أن أحكم لها أو عليها ، بل لست أملك الصلاحية التى تؤهلنى لأن أكون قاضيا ، بيد أنى مازلت أذكر كيف كانت تتملكنى الحيرة ويستبد بى الغضب وأنا ألمح أصدقاء أبى من كبار الأطباء يقطبون جباههم ، وهم يبدون شديد تأثرهم وعمق مواساتهم لنا جميعا .

وفى اعتقادى ، أنه قد ساءها ــ وهى التى كانت محط أنظار الرجال ــ أن تفقد عرش الجمال الذى تربعت عليه طويلا - وربما اشتد بها اليأس الى حد الرغبة فى أن تلاقى الردى حينما اكتشفت أن بعض الجراح قد حكم عليها بالشيخوخة المفاجئة قبل الأوان لست أدرى تماما .

***

نفضت يديها من كل شئون الدار ، ولم تعد تلقى أوامرها وتعليماتها للخدم ، وكنت ألمح أبى وهو يعد قائمة الطعام مع الطباخة كل صباح وقبل أن ينطلق لمكتبه ، وكانت تحضر فى بعض الأحايين بعض المآدب الرسمية ، تجلس فى صمت وفى وجهها نظرة شاردة

بلهاء ، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة لا معنى لها ، وكان ابى – فى الايام الأولى – يضطر للاعتذار بمرضها الى مدعويه .

ومن أجلها – رفض الذهاب الى فرساى – حينما عرض عليه ليشغل منصبا خطيرا كان سيتوج مستقبله العظيم ، منصب مدير البوليس فى باريس !

ولكنى أسارع فأقرر لك ، أنها لم تكن مسئولة قط عن تركه منصبه الحكومى واعتزاله الحياة فى ضاحية « لوفيسينيه » بين جدران ڤيلا ماجالى .

كنت أنا وحدى المسئول عن ذلك ، ولم يكن لأمى اى ذنب او يد فيما حدث أو ترتب عليه .

كان ذلك بسبب مأساة ١٩٢٨ التى أتحمل مسئوليتها كاملة .

***

وربما كان من واجبى أن أشير الى وجهة نظر شقيقتي فى تلك الحالة الفريبة التى أصابت أمنا ، فهى تزعم أنها تعرف من أسرار عائلتنا أكثر منى ، ولا أجد مفرا من أن أعترف لها بذلك ، فهى بوصفها كانت تكبرنى سنا قد كان لها من الرشد ما أتاح لها أن تعرف أمى خيرا منى ، وقبل أن يطرأ عليها ما أصابها أو لعلها فى اثناء وجودها بباريس قد عرفت ما لم يصل الى اذنى .

حسنا ، انها تقول – تحت مسئوليتها – ان أمى لم تتزوج أبى قط لأنها شعرت نحوه بحب او ميل اليه .. بل لأن قلبها كان قد تحطم أخيرا على صخرة غرام فاشل أطاش صوابها ، فاندفعت بدون تفكير تلتمس اليابسة ، اية يابسة تعرض لها بين الأنوار ، وهكذا اقتنصها أبى ، وبرغبتها ابتعدت عن باريس مهد الحب والجمال منزوية عن الأضواء ، كما تفعل اية راهبة حينما تدفن نفسها باختيارها فى احد الأديرة البعيدة عن العمران !

– أما تستطيع أن تقدر مدى التضحية التى أقدمت عليها حين تركت الحياة فى باريس حيث الحفلات والسهرات وحياة السفارات ، لتدفن نفسها فى احدى محافظات الريف مع موظف

صغير ؟ انها لم تتزوجه املا فى مستقبل زاهر مشرق ، بل تزوجته هربا من ماض مكروه ، ومما يؤكد لك ذلك انها حينما خطبها ابى لم يكن قد حدد بعد مستقبله وميدان عمـله ، وكان فى وسعـه أن يشغل وظيفة ممتازة فى وزارة الخارجية او على الأقل منصباثابتا محترما فى العاصمة باريس نفسها ، لكنها أصرت على أن يقبل تلك الوظيفة الادارية فى المحافظات ، حيث تنتقل من محافظة لأخرى فى أعماق الزيف ، وكأنما هى تتعمد الانتقام من نفسها !

وحينما بدأت أحتج معارضا استطردت تقول :

ـ لم تكن وقت ذاك الا طفلا صغيرا ، تنظـر الى الأمور فى سذاجة وبراءة بلا دهاء أو عمق فى التفكير ، لم تذهب قـط الى المآدب والحفلات التى كان يقيمها أبواك فى دار المحافظـة ، حتى ترى كيف كانت تبدو مشحونة الطاقة ، لكنها طاقة مصطنعة ، ومرح مفتعل يخفى خلفه مرارة مدفونة فى اعماق قلبها ، كانت تمثل دور المضيفة السعيدة التى تطير بشرا وسرورا أمام طائفة من العجائز الثرثارات وبناتهن العوانس ممن فاتهن قطار الزواج ! الا تدرك اذن انها كانت تسخر منهن فى اعماقها ومن نفسها أيضا ؟

ربما كان ذلك صحيحا ، بيد أنى أعتقد ـ وأبحث عن وسيلة فى نفسى حتى اعتقد ـ انها كانت تحب ابى برغم كل ما سمعت .

اما هو فقد كان شاكرا لها ـ مدى حياته ـ اختيارها وتفضيلها اياه دون سائر المعجبين بها وكان يعتبر نفسه مسئولا عن توفير كل أسباب السعادة لها ، ويرى ـ والحزن يقطع نياط قلبـه ـ انه سبب ما أصابها من مرض وخبل !

وارجو الا يكون هذا غير مفهوم لك ، اذا قرأته قبل ان تتسلح بالتجربة والايمان ، بيد أن هناك من الحقائق ما قد تبدو عسـيرة الهضم ، ثقيلة التفسير والفهم ، وقديما كان هناك بوسيس وفيلمون الاغريقى أو ناعسة وزوجها أيوب المصرى : بوسيس او ايوب يسقط صريع المرض ، ويتورم جسمه ويمتلىء بالبثور وما تحت جلـده الباهت بالماء العفن ، ويبدو كجيفة كريهة المنظر والرائحة تشمئز

منه الناس الا حبيبته فيلمون الاغريقية ، أو ناعسة المصرية،لضحى كل بأعز ما تملك فى سبيل ارضائه ورعايته وتمريضه !

كذلك قررت لى شقيقتى ـ فى صيغة التأكيـد ـ ان أمى لم تحبنا قط . لا أنا ولا شقيقتى ، وكنا فى نظرها شرين لابد منهما ؟ ضاعف من رباطها بالرجل الذى لم تشعر نحوه بأى حب !

وأكاد أميل الى الأخذ بوجهة نظرها حينما أتلفت حولى فيمـا يحيط بى ، فأبدأ أرتاب بدورى فى احتمال أن الحب الاموى حقيقة قائمة فى قلب كل أم ! لا أنكر انها عاطفة غريزية موجودة فعلا ،ومع ذلك فاننى اقطع بأن كثيرا من الأمهات لا يشعرن به أبدا ، أو ربما لفترة بسيطة مثل ام الحيوان حتى ينتهى دور الفطام ! .

والعهد ليس ببعيد على تلك القضية التى شغلت الراى العـام واثارت سخطا شعبيا أشبه بالعاصفة المـدمرة ، امرأة ما تزال فى عمر الزهور قرر جميع علماء النفس أنها فى حالة عقلية طبيعيـة ومسئولة تماما عن كل تصرفاتها ، قتلت وحيدها الذى لم يتجاوز الثالثة من سنى حياته ، لا لسبب سوى أن محبا لها تحـداها ان تفعل ذلك لتبرهن على شدة حبها له !

ولعل مما أثار عاصفة السخط والدهشة فى نفوس الناس ، هو ندرة وقوع أمثال تلك الحوادث ، حتى فى حال وقوعها فنحن ـ لأننا نتبع مقاييس اخلاقية معينة ـ ننظر الى الجانية باعتبـارها اما مجنونة فقدت عقلها ، أو سفاحة مصاصة للدماء !

ثم ألم نفتح أعيننا فجأة لنكتشف خداع اوهام طفولتنا حينما نكتشف حقيقة العلاقة التى تربط بين آبائنا وأمهاتنا ، وندرك انها ليست بتلك الطهارة المثالية الملائكية التى تخيلناها فى أحلامنـا وقرأنا عنها فى القصص الخرافية الصغيرة ؟

لقد لاحظت ذلك بنفسى حينما رأيتك تنكمش وتحجم عن تقبيل أمك أو دخول غرفة نومنا وانت بعد صغير جدا ، كنت أعرف مدى ما وصلت اليه اكتشافاتك وان لم يظهر ذلك على وجهـك ، لأن الطفولة البريئة والخجل الغريزى صنوان لا يفترقان !.

الفصل السادس

واخيرا قد أزفت اللحظة الحاسمة حيث لا أجد مفرا من أن أحدثك عن صديقى « نيكولاس » وايام طفولتى التى يعتبر ذلك الاسم مرتبطا بها ايما ارتباط ، بل رمزا وعلما عليها ، ولسوف يساعدك ذلك على فهم بعض تصرفاتى ازاءك ، وتبرير كثير من الأسئلة التى كنت أوجهها اليك والتى طالما أثارت غضبك !

ـ هل تعرفت بصديق جديد ؟.

كانت ظنونى تصدق كلها دون حاجة لأن أزعم فى نفسى السحر أو التنجيم ! فحينما تبدأ فى استعمال اشارات بيدك جديدة عليك ، أو تعبيرات ومصطلحات لم تكن تعرفها أو تغير شيئا من مظهرك : طريقتك فى تنسيق شعرك أو عقدك رباط رقبتك مثلا ـ افهم أنا فى الحال أن عنصرا جديدا قد دخل فى اطار حياتك . وربما أغاظك أنى كشفت ذلك الطارىء الجديد عليك ، الأمر الذى يفهم منه أنك ضعيف الشخصية ، سريع التأثر بالغير برغم أنى كنت احاول قدر جهدى ان أكيف أسئلتى فى لباقة وبطريق المداعبة كما يفعل الأصدقاء وبلهجة رقيقة هينة حتى لا اهيج شعورك أو أثير انتباهك .

وعلى عكس ذلك تماما ، كانت تفعل والدتك . فهى أجرأ منى واحد لسانا ، لأنها تعتنق مبادىء مستقيمة صريحة فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وفيما ينفعك أو يضرك ، ولا تؤمن بالأشياء الوسط أبدا ، ومن ثم فهى ترى أن من حقها عليك أن تختار بنفسها أصدقاءك .

وهى لا تكف أبدا عن اتهامى بأنى اتخاذل فى اداء واجباتى الأبوية حيالك بترك حبل العنان لك ، وانى لأرجو من كل قلبى الا تقودك قدماك فتقع فى مأزق يهدد مستقبلك ، حتى لا ألوم نفسى واحملها تبعة ذلك .

ولا اخفى عنك انى اخشى ذلك اليوم ، بل أن مجرد التفكير فيه يقلق منامى ويزعج احلامى ، وكلما صلب عودك واشتد ساعدك وطالت قامتك اشتد خوفى عليك،ولا احسب الآن كل الآباء فى مثل

حالتى : اكبادهم تسعى على الأرض ومع ذلك فربما كنت اكثرهم حساسية .

ومهما كان الأمر فلو كانت أمك مكان أبوى ما استطاعت أن تحول دون نمو صداقتى بنيكولاس ، ولا أذكر لقبه لأسباب سوف تعرفها فيما بعد .

وقد تعرفت به بحكم الزمالة ــ وأنا فى ليسيه لاروشيل ــ حين كنا فى الفرقة الخامسة ، وظللنا ثلاث سنوات كاملة لم تتعد علاقتنا زمالة الفصل العادية التى تحدث دائما بين التلاميذ .

كان اطول منى قامة ، أحمر الشعر بجلد يديه ووجهه بقع حمراء صغيرة ، لكنه كان يمتاز بعينين زرقاوين باهتتين فيهما رقة وجاذبية .

وعلى خلاف ما تعتقده ، او يظنه غيرك من الناس ، ليس مما تحسد عليه أن تكون ابنا لمحافظ الاقليم وانت بعد طفل صغير فى أول مراحل دراستك ، ما من شك فى أنه قديسرك أن تجد كل من حولك يخاف ان يلمسك النسيم ، وفى مركز ممتاز ووضع فريد ، لكنك تلقى نفسك فى جو مشحون بالحسد والكراهيةوسوء الظن من رفاقك الصغار ، يخشون الاقتراب منك ويتحاشونكوكأن بك جربا ! ومن ثم كنت ترانى ــ بدل أن ازهو وأفخر بمنصب ابى الكبير ــ أبدو متواضعا وديعا كالحمامة ، أكاد أعتذر عن « جرم » لا ذنب لى فيه حتى أحطم ما بينى وبين أصحابى من حواجز تحول دون خلق جو من التفاهم والصداقة !

وما كان ذلك تكلفا منى او تظاهرا ، بل هو الحياء الذى ولد معى والخجل الفريزى الذى لم أستطع أن اتخلص منه حتى الآن . كنت أتوق دواما الى الانسحاب من وسط الزحام والانكماش داخل قوقعتى ، مثلما فعلت أمى ذات يوم ، وانسحبت من الحياة العامة تماما والى الأبد .

وكم أحب أن أصف لك شعورى وأرسمه لك فى لوحة بارزة بألوانه الطبيعية،ولعلك لم تلاحظ بعد أن أول ما يفعله الطفل حينما

يتعلم أن يمسك القلم ويحاول أن يجرى به على الورق ـ هـو أن يصنع مربعا مغلقا يمثل بيتا يعتقد فى أعماق لا شعوره أنه بيته الذى يملكه ، وذلك المنظر نراه دائما على شاطىء البحر حينمايشرع الصغار فى بناء بيوت من الرمال ، كذلك كنت تفعل أيضا ..

ومن ثم فان اول ما يلتصق بذاكرة الانسان هـو البيت الذى يعيش فيه بأدق ما فيه من دقائق وتفاصيل . سواء أكان بيتـا ريفيا عشا أو كوخا من القش أو فيلا أنيقة أوشقةرائعة فى باريس ، أو قصرا منيفا به غرف خاصة للبواب والخدم ومصـعد أو درج، وطنافس تغطى الأرض من المدخـل ، أو كان أرضـا عـارية من الحجر أو البلاط !.

أما أنا فقد اعتدت كلما عدت من مدرستى أن أجد الباب غاصا بالشرطة يؤدون لى التحية فى احترام ، وعلى جانبى الدرج لوحات ارشادية عليها أسهم تشير الى كل اتجاه :

«الطابق الأول ـ القسم الثانى ـ المكاتب الادارية على اليسار»

« الطابق الأول ـ القسم الثالث ـ شئون الزراعة والفلاحين على اليمين .

« قسم المستشفيات ـ الادارة الصحية ـ ادارة العمل ـ ادارة الاسكان »

« فى الجهة الأخرى من الفناء ـ الدرج رقم (ج) ... »

فقد كنا محوطين بكثير من الأبهاء والممرات وأكثـر من درج ، تهب منها التيارات الهوائية ، ومازالت ذكراى الأولى عن أبى مرتبطة بصورة احد السعاة ، وهو رجل اشيب عجوز يجلس الى نضـد صغير امام الباب المغطى بطبقات اللباد والمطاط .

وكان الطابق الذى نشغله لسـكنانا متسع الأرجاء مرتفع السقف جـدا ، وطالما سـمعتهم يصرخون بى : حذار أن تلوث السجادة !.

كانت التقاليد تقضى بأن تغطى كل الجدران بقطع من السجاد النادر ومجموعات من الأطباق الثمينة الملونة واللوحات الزيتيـة الرائعة مما يليق بمقام المحافظ .

وكلها أموال اميرية لا نملك منها شيئا ، فكل أثاث البيت مملوك للدولة ! .

ـ اش !.

وترفع مربيتي سبابتها الى فمها محذرة :

ـ لا ترفع صوتك ، ان السيد المحافظ يستقبل ضيوفا .

لم أكن مثل باقي أطفال هذه الدنيا ومن لهم أب وأم : اشقاء وشقيقات ، خادم أو مجموعة من الخدم والوصيفات ، كنت محاطا بمجموعة من الناس اكرههم جميعا ، واعتقد انهم يمارسون سلطات كريهة لتقييد حريتي والحد من حقوقي الطبيعية في ساعات طعامي وشرابي ولهوي ونومي ، يحركونني كالدمية اينما وحيثما شـاءوا حتى في سويعات رغبتي في لقاء أبي وأمي !

فتلك النعم والميزات التي كان رفاقي الصغار يحسدونني عليها لم تكن في نظري الا لعنة بغيضة الى نفسي وددت لو أفر منها الى عالم أتمتع فيه بشيء من المرونة والحرية !.

كل انسان ما عدانا ، وما عداي كان له الحق في أن يستحوذ على وقت أبي واهتمامه ، أولهم واشدهم جرأة هو المسيو كورنير مدير مكتبه الخاص ، ثم سكرتيره الخاص ، ويليه مديرو الاقسام ، وكانوا أربعة من الكبار ، ثم كبار الزوار من الحيثيات الذين يفدون للمدينة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب في المقاطعة والبارزون من زعماء النقابات ومن الناخبين وأخيرا أصحاب المظالم والشكايات .

وربما أتيح لنا بعد لأي وجهد شديد أن نجلس معه مرتين كل أسبوع على مائدة العشاء نتناول معه الطعام في جلسة عائلية خاصة وحتى ذاك لم تكن نهنأ به ، فكثيرا ما كانوا يطلبونه للتليفون ، فيترك طعامه اوينهيه على عجل ليستقبل شخصا ما في مهمة سرية عاجلة .

وفي الثانية عشرة من عمري ، كان قد بلغ ضيق صدري من تلك الحال حدا كبيرا حتى كدت أشعر بعدم الرضا نحو أبي لرضاه بذلك الذل وتلك العبودية التي تكبله بقيود حديدية لايستطيع منها فكاكا ، والتي تحول دون ان يستمتع بحياته العائلية ، ودون ان استمتع

بوصفه ابي ؟ يرعاني ويوليني نصيباً من حبه واهتمامه كما يفعل سائر الآباء !.

كان رفاقي في المدرسة يحسدونني او يغبطونني على تلك التحيات العسكرية التي القاها من الشرطة اينما ذهبت دون أن يخطر ببالهم ازمتي النفسية الخانقة التي كنت أمر بها مما يجعلني اكثر منهم حسداً لهم .

وبطبيعة الحال بمضي الوقت ولما اشتد عودي ونضج تفكيري اكتشفت مدي ما كنت اتخبط فيه من أفكار سوداء خاطئة ، وما أردت الا ان أصور لك يا ولدي طريقة تفكيري وأنا في مثل سنك.

والاقامة في دار المحافظة فرصة طيبة تسنح للانسان حتى يرى كل ما يدور على المسرح من خلف الكواليس ، شاء أم لم يشأ، وينظر بعينيه كيف يجذبون الخيوط الرفيعة التي تحرك الدمى !.

ولقد حدثتك في مرة سابقة كيف حصلت على وسام اللجيون دونور ، وذكرتني ذلك بمحادثة تليفونية سمعتها ذات يوم ، كان ابي يضع المسماع على أذنه منصتا وهو في الوقت نفسه يقرأ باهتمام في صحيفة منشورة أمامه ، لم يكن لها أدنى صلة بتلك المحادثة ، وكان صوت الرجل في الطرف الآخر عميقا به رنة من الالحاف والرجاء .

وكان ابي يغمغم من وقت لآخر ، وهو يتابع بعينيه ما في الصحيفة .

ـ نعم ، نعم ، فهمت . . .

ومازلت أراه الآن وهو يجري بقلمه الأحمر خطا عريضا تحت بعض العبارات فوق الصحيفة ، وأخيرا وبعد أن انتهى الطرف الآخر من حديثه سمعت أبي يقول :

ـ اواثق أنت من أنه لن يرضى بوسام (سعف النخيل) ؟ نعم، نعم ، فهمت ، حسنا يا سيدي العزيز ، اتفقنا ، سوف أنقل طلبك للسيد الوزير طالما هذا رأيك وتعتبره هاما وتستطيع أن تعده بوسام الصليب !.

ذلك مثل واحد من بين الآلاف ، فما كان يعتبره الناس سرا خطيرا انما هو أمر عادى بالنسبة الينا حتى لصبى فى مثل سنى ..

ـ نعم ، نعم ، أواثق أنت من عدم حصول تلفيات ؟ سأتصل فورا بمدير الشرطة ، طمئنه يا صديقى العزيز ، قل له الا يقلق ، فسوف يتم كل شيء على ما يرام .

وكنت أعتقد فى باديء الأمر أن أبى مخادع كبير ، أو رجل شرير يستعمل نفوذه القوى فى عرقلة سير الأمور على حسب طبيعتها ، فشعرت نحوه بالغضب .

حتى بين جدران مدرستى لم يكن ضميرى مرتاحا ، وطالما ساورتنى الظنون بأن ما ألقاه من تظرف رفاقى وتلطفهم معى ليس أمرا تدفعهم اليه سجيتهم ، بل لابد أنهم مدفوعون الى ذلك من أولياء أمورهم لأن لهم ملتمسات يبغون تحقيقها من أبى ، وامتدت تلك الظنون الى اساتذتى حينما رأيت أحدهم يخرج من مكتب ابى فى المحافظة وقال أبى لنا ونحن على مائدة الطعام :

ـ مسكين هذا الشاب ! الأطباء يقولون ان هواء البحر يفسد صحته ، وبرغم ذلك يصدر مدير التعليم أمرا بنقله الى هناك ! لقد وعدته بأن أوصى بنقله الى سافوناى كما يريد ويحب .

وآباء أصدقائى الصغار كانوا يستغلون فرصة صداقتى ، ويعتمدون بأية طريقة على تنفيذ مآربهم وتسهيل مصالحهم من أبى ، وشعرت بحقارة شأنى وضعف شخصيتى أمام الناس جميعا ، فلو لم أكن ابن المحافظ ما أعارنى مخلوق فتيلا ؟ .

وكنت أشعر برغبة شديدة فى ان أصيح قائلا : ذلك غش وخداع ، خداع ! .

بيد أن أبى لم يكن مخادعا ، كان يؤدى رسالته فى أمانة واخلاص وضمير يقظ ، ذلك ما اكتشفته بعد حين !

وكنت أنا الجاهل الأحمق الذى سمحوا له برؤية أبطال القصة من خلف الكواليس ، ولم يفهم قيمة ما يؤدون من أدوار سامية ، بل

اكتفى بالتفــرج عليهم وهم يرتدون الثيــاب ويضعون المساحيق والألوان !.

ولذلك لم انكر تلك العبارة التى سمعتها يوما ما . من ان عالمنا يتألف من نوعين من الناس : فريق يؤدي رسالته الكاملة على أتم وجه ، وفريق آخر انما يعيش على هامش الحياة ، كأشباح تتحرك بلا هدف مرسوم !.

وفى تلك الظروف النفسية التى أوضحــــتها لك التقيت بنيكولاس واتخذته لى صديقا .

ولم أكن قد ألقيت اليه انتباها خلال ثلاث سنوات كاملة وهو معى فى المدرســـة .

ففى كل فرقة دراسية تمتلىء مقاعدها الخلفية ببعض التلاميذ الذين لا وظيفة ولا عمل لهم الا ملء الفراغ حتى ان المدرسين فى أغلب الظن لا يشعرون بوجودهم !

وكان نيكولاس أحد هؤلاء ، بطىء الذكاء فاقــــد الحمـــاس للدراسة ، يحتل دواما مقعــدا خلفيا ينزوى فيه لا يضر أحــدا ولا يضره أحد ! . فلم يكن من بين أولئك الذين لا يكــاد ناقوس المدرسة يدق حتى يثبوا على دراجاتهم منطلقين الى ضواحى المدينة او الحقول ، كذلك لم يكن من بين تلك المجموعات أو الشلل التى تسير معا فى المدرسة فى طريقهم لبيوتهم .

ولم يسترع انتباهى ـ على وجه التحــــديد ـ الا ونحن فى الفرقة الثالثة « الصف الثالث » حين صار هواية لا يستغنى عنها مدرس اللغة الانجليزية كل صباح ! ولقد علمت بعد ذلك عن هــذا المدرس الذى فصلته ادارة التعليم لعدم صلاحيته للتــدريس انه كان يعانى الأمرين من فظاظة زوجته ومعاملتها الخشنة له ..

كان صاحبنا المدرس يخشى سخرية التلاميذ وسلاطة ألسنتهم ، فلم يجد طريقة يحمى بها نفسه سوى أن يختار من كل صف تلميذا بليدا ضعيف الشخصية يجعله ضحيته طوال العام ، ليجعــــله درسا لجميع التلاميذ حتى يبث فى قلوبهم الخوف ويدفعهم الى احترامه طبقا للمثل المعروف اضرب المربوط يخف السائب !»

فقى كل حصة له كنا نشهد فعلا بينه وبين نيكولاس ما كنا نتوقعه لطول ما اعتدنا ، ويظل الصبى الصغير واقفا على قدميه وقد احمر وجهه والتهبت اذناه ! ».

وعرفت من ملاحظات المدرس ان ام نيكولاس كانت تفتتح متجرا يبيع فيه كل ما يلزم الأطفال قبل الفطام من « القصارى » والمناشف والمفارش ، الأمر الذى كان يبعث على النكات السخيفة والتعليقات الرخيصة من استاذنا المحترم ومن جرى على شاكلته من التلاميذ !.

وعرفت ذلك المتجر ، وكان فى شارع « جيتو » بين محل اقصاب اعتدنا أن نشترى منه ما يلزمنا من اللحوم ، ومتجر لبيع الأدوات الجلدية ، وسرعان ما كنت أعود من ذلك الطريق بصحبة نيكولاس فى اغلب الايام .

وكان أبوه قد مات بين جدران مستشفى المجاذيب ، وهو شخص برغم أنه كان يبدو اقوى منى واكثر بدانة كان قد امضى عامين يعالج من مرض فى صدره فى احدى المصحات الجبلية مما جعل أمه تخشى عليه من التعرض لأى تيار هوائى ، وتنزعج لو أصيب بلمسة برد ، كان قد سمع وقاسى طويلا من المرض مما جعله يتمنى من اعماقه بل عقد العزم فعلا على أن يصير طبيبا .
وكان يضيف : هذا اذا استطعت أن أجتاز اختبار البكالوريا طبعا !.

كان يقولها فى شبه يأس لعدم ثقته فى نفسه !

وبقدر ما كان طويلا عريضا كانت امه نحيلة القوام ، ضئيلة الجسم ، شاء القدر أن تترمل وهى بعد فى ريعان شبابها ، فمضت تكسب قوت يومها فى ذلك المتجر الصغير من أدوات الأطفال ولوازمهم .

وكادت تطير من الفرح والعرفان بالجميل حينما عرفت أننى قد اتخذت ابنها رفيقا لى ، ولم تنس قط أن أبى هو محافظ الاقليم مما جعلنى اشعر بعدم الارتياح .

ومما ضاعف ارتباكي انها ما تكـاد تراني احضر برفقة ابنها لعمل الواجب المدرسي معا ، حتى تهرول الى نصف الدكان الخلفي وتسرع بتنظيفه واعداده حتى يبدو في مظهر لائق !

ـ يخيل الى انك جوعان يا مسيو آلين ؟

واقتضى الامر شهورا واضطررت أن احدث نيكولاس مرارا حتى كفت والدته عن أن تدعوني بلقب «السيد» ومـع ذلك كانت تفعـل ذلك مكرهة ولم تستطع أن ترفع التكليف معي قط .

ـ لقد شاهدت الآنسة لافرنسوا تمر من أمامي توا مع بعـض صديقاتها الصـغيرات ، يا لها من شابة جميلة ! وما أروع ثيابهـا ايضا !.

ولم أتأثر قط بشخصية نيكولاس لأنه كان فاقدها وفاقد الشيء لا يعطيه ! كان مثل أمه راضيا آخذا نفسه بالقناعة والاستسلام ، يأخذ الحياة كما هي دون تبرم أو احتجاج حتى تلك المعاملة الشاذة التي كان يلقاها من مدرس الانجليزية لم تكن تثير فيه أي شعور بالضيق أو الغضب على كرامته !

واعتقد انه كان سعيدا ، واكبر الظن انه ما زال كذلك في قرية شارنتي حيث قيل لي : انه الآن طبيب ناجح ، وقد ضم الى جانبه والدته لتقضي معه أيامها الأخيرة في هدوء .

ـ أتسمح لي بأن أسألك يا سيد نيكولاس : فيم تحلم الآن ؟

واستطيع أن اتخيله جالسا الى قمطـــره بجوار النافـذة وقد فاجاه الأستاذ بسؤاله فانتفض مذعورا ، وراح ينظر حواليـه في بلاهة وارتباك ويغمغم .

ـ آسف يا سيدي !

وكان الوحيـد الذي لا يناديه المدرس باسمه مجردا من باب السخرية .. طبعا ..

وعلى اية حال فقد كانت علاقتي به طيبة ، وتوثقت صداقتنا شيئا فشـيئا ، وانسحبت من المجموعات الأخـرى ولم اكن في الحقيقة انتمي لأية منها ، ولم يعد لي بين الرفاق صديق سواه ؟ وظلت علاقتنا معا فترة طويلة .. حتى عام ١٩٢٨ ، ومع ذلك فلم

اشعر قط طوال هذه المدة بانى فى حاجة لأن اشركه فى تفكيرى أو ابثه اسرارى أو أفتح له مغاليق قلبى .

كل ماكنت أبغيه ، صديق أجده وقتما اريد ، اقضى معه سويعات فراغى دون أن يتضايق او اثقل عليه بصحبتى .

***

كنت وقتئذ ـ غير مؤمن بوجود أى نوع من الصداقة الحقيقية لطول ما شاهدت من نفاق فى المحيط الذى كنت اعيش فيه .. وكثيرا ما كنت أسمع أبى يتكلم فى التليفون :

ـ مرحبا بصديقى العزيز ! لا ، لا ، أرجوك ألا تكلف نفسك عناء الحضور ، يكفى أن تبعث أى انسان الى مكتبى صباحا ، ستكون الأوراق جاهزة ، نعم ، تحت أمرك أيها العزيز !

فثمة فريق من النــاس كل الأمور ميسرة لهم ، وحــوائجهم مقضية حتى دون أن يجشموا أنفسهم عناء السعى وراءها على حين كانت دهاليز المحافظة وأبهاؤها تبدو أغلب الأحيان مزدحمـــة بالعجائز من السيدات القرويات اللاتى يتعلقن بأهداب أى شخص يمر بهن متسائلات :

ـ هل تخبرنى يا ولدى ؟ أين أستطيع أن أحصل على معـاش شيخوختى ؟

وقد ترى خارج الأبواب الأخـرى طوابير طويلة من الرجال ، ثيابهم رثة وذقونهم لم تحلق ، وكذا بعض النسوة يحملن هيــاكل نحيـلة يسمنها اطفالا .. برزت عظامهم وجفت جـلودهم فقـرا واملاقا ..

وما كنت ألوم ابى على ذلك لكنى لم أكن فخورا بمنصـبه أو بمدى ما يجمع بين يديه من نفـوذ وسلطات وانا أراه يبدى شديد اهتمــامه بطراز خاص من الناس ، يبتسم لهم ويناديهم بقـوله : « صديقى العزيز » عبارة كانت كالقذى فى عينى لطول ما كرهت سماعها ، وقد يدعوهم أحيانا على المائدة يشاطرهم الطعام !

وفى تلك الأيام كانت فى لاروشيل شخصية بالغة الأهمية ، تحمل اسم « بوريل » لعبت دورا هاما فى مأساة عام ١٩٢٨ ، ومن أجل ذلك أرانى مضطرا لأن اشير اليه فى حديثى .

وبالرغم من أن ذلك الشخص لم يكن موظفا رسميا ، وبلا أية شهادة او حرفة . فقد كان وحده بمثابة قوة معارضة هائلة تعرقل مشروعات أبي وتقض مضجعه ، وكان بي شـــعور خفي بأن أبي يكرهه من أعماق قلبه ، ومع ذلك يحاول عبثا مهادنته وملاينته بلا نتيجة بتاتا .

واذ كان ابوه صائد سمك بسيطا ، فقد بدأ حياته في البحار وعمل ربانا لاحدى السفن التجارية المملوكة لبعض الأهالي والتي تستخدم في نقل الفحم الى انجلترا ، ولست أدري : ما الذي حدث تماما ؟ لأني لم أهتم ببحثه في ذلك الحين ، وكل ما أعرفه أنه أرغم ذات يوم على تقديم استقالته ..

وكان في الاربعين من عمــره ، فمضى يقضي ليله ونهــاره على شاطىء البحــر وفي سوق السمك بمرفأ باليس ، وعلى المقــاهي المحيطة بالميناء وخاصة « عند اميل » حيث كانت له مائدة خاصة في أحد الأركان بجوار النافذة ...

كان بدين الجسم ناعم الشعر قليل العناية بثيابه أو هندامه ، وحينما أبصرته عيناي أول مرة بعد أن سمعتهم يذكرون اسمه في بيتنا كدت أصعق لمظهره البرىء ، فلم يكن يبدو عليه أية شراســة أو فظاظة في الخلق : كان في منظره ما يذكرني بصديقي نيكولاس ، من العينين الزرقاوين بما فيهما من طيبة ودعة لولا أنه كان يضــع عوينات سميكة عدساتها غليظة كأنها تلسكوب ! .

وليس من السهل على المرء أن يحدد الدور الذي كان يلعبــه بوريل في الحياة العامة وفي السياسة المحلية من غير أن نذكر ما كان يطلقه عليه كلا الجانبين معا : الجانب الذي يؤيده ، وذاك الذي يعارضه ، من الشائعات .

فحماة القانون والنظام ، الحكومة والمحافظ ، اصحاب السفن ، والناس من أمثال والدة نيكولاس يقولون : انه فوضوي خطير ، رجل لا يحلو له الصيد الا في الماء العكر ، ارهابي أثيم يجد لذة كبيرة في اثارة القلاقل والشغب .

وحتى افراد هذه الطائفة يعترفون بأن ما يبدو عليه من طيبــة

وبراءة ونبل ؟ ليس الا ستارا لما يخفيه في نفسه من ذكاء ودهاء الشياطين ، وعقلية قانونية ماكرة كثيرا ما هددت الأمن ووضعت الاجهزة الحاكمة في وضع حرج بالغ الدقة .

أما الباقون فهو في نظرهم بطل قلما يجود التاريخ بمثله ، جمع بين الثقافة والتجربة ، ركل منصبه في قيادة عابرات المحيط ليقود شعبه نحو النصر ، تواضع وتدلى من مكانه السامي ليجلس بين أهل قريته ومواطنيه وذراعاه مفتوحتان لهم يضمهم بين أحضانه ؟ ينصت الى شكاياتهم ومظالمهم بآذان مصغية واعية ، ولا يتوانى أبدا في بذل المعونة والنصيحة بلا مقابل !

ورث عن أبيه نصيب الثلث أو الربع في بعض قوارب الصيد ؟ ولم يكن ذلك كافيا أو ليقيم أوده ، فقد كان زوجا ولديه ثلاثة أو اربعة أولاد ، أحدهم دخل الليسيه في السنة التي تخرجت فيها ؟ وكان يسكن في بيت صغير وسط فضاء كبير من الاراضي المهجورة .

من أين كان يحصل على المال ليغطي نفقاته ومصروفاته ؟ أمن صندوق اتحاد عمال البواخر الذي كان يتزعمه بطريقة غير رسمية ؟

وبالاضافة الى عمال البواخر في لاباليس ، ورجال شحن الفحم في المرفأ ، امتد نفوذه أيضا الى جميع صيادي الأسماك في أعالي البحار حتى قيل : انه كان في وسعه ـ باشارة خفيفة من يده أن يحدث اضرابا شاملا في جميع وسائل الشحن والتموين والصيد لو أراد !

لم اعلم بكل ذلك الا قبيل معركة الانتخابات الأخيرة بفترة وجيزة حيث رأيت أبي يستقبله بعد العشاء عدة مرات في مكتبه ؟ وكان في كل مرة يخرج من لقائه قلقا مهموما ، هل كانا يعقدان اتفاقا ؟ . وهل كان أبي ـ بوصفه ممثل الحكومة ـ يشتري حياد الرجل ؟ والى أي مدى ذهب في محاولة اقناعه ؟

لست ادرى عن ذلك شيئا يا ولدى ، لا اكثر مما تعرفه انت عن أسرار عملي .

وكلما امتد بالانسان العمر ، وحنكته التجارب اضاءت أمام ابصاره آفاق كانت من قبل غوامض مجهولة لا يستطيع لها ادراكا أو تفسيرا .

وكلما تذكرت « بوريل » تمثل فى خاطرى شخصا خرافيا تتناقله الأساطير ، ورمزا يخلد قصة الثورة والنضال ولذلك كنت أكن له فى نفسى قدرا من الاحترام .

وأرجو الا تسىء الفهم ، فما كان لى شأن بما يدور ، ولم أكن فى سن تسمح لى بابداء آرائى علانية ، أو الانحياز الى فريق دون فريق .

كان ابى يمثل السلطة التى تحكم ومن بعده السيد كورنير ، ثم العم فاشيه بعد ذلك بفترة طويلة .. وما يتبعهما من جهاز ادارى يمثلان السلطة التنفيذية ومن خلفهما أصحاب المصالح الذين يؤيدون النظام رعاية لمصالهم وخوفا من زوال نفوذهم ، ومن ثم يحرصون على بقاء الأحوال كما هى .

ومن وراء كل هؤلاء يقف أمثال والدة نيكولاس ، ببيتها الصغير النظيف وخلف متجرها البسيط الذى تبيع فيه لوازم الأطفال ـ يمثلون الطبقة « الطيبة » من الناس يطيعون دون مناقشة لأنهم جبلوا على الطاعة .

ولا تعجب اذا علمت أن الأمور كانت تختلط فى رأسى بالرغم من انى كنت أعيش وسط الدائرة التى تحترف السياسة وتناقش بعمق وصراحة امامى كما كان بين ضيوفنا أعضاء الشيوخ والنواب أو زعماء النقابات والبارزون ، ومع كل ذلك فما كنت أهتم بتمييز طائفة دون أخرى .. أو أعنى ببحث أسباب الخلافات التى كانت تصنع هوة عميقة بين اليمين واليسار حتى الموضوعات السياسية التى كانت الصحف تفرد لها اعمدة طويلة لم تكن تثير فى نفسى أى فضول ، بل تبعث فيها الملل والضيق .

ولكنى كنت عدوا للحركات الانقلابية الثورية التى تهدف الى تغيير اى نظام استقرت رواسبه وهدمه ، وفى الوقت نفسه كان

قلبي دائما في صف المحكومين أكثر من الحاكمين أو اذا شئت صراحة أوفر : مع المظلومين لا مع الطغاة الظالمين !.

وكنت أشعر بارتياح عميق لصداقتي بنيكولاس ، وربما كان من أهم أسباب ذلك انه لم يكن يحشر انفه أو يسأل عما لا يعنيه ، لم يهتم قط بالسياسة أو بالمعركة الانتخابية التي استعر اوارها وقت ذاك ، ولا يفكر الا في أمل وحيد يشغل باله ، هو حصوله على البكالوريا التي كانت بالنسبة له حلما بعيدا ، ومعجزة كبيرة عسيرة المنال والتحقيق ! فاذا ما حطم ذلك العائق العتيق انطلق الى دراسة الطب في بوردو التي تقيم فيها احدى عماته ، ثم يستقر نهائيا في احدى ضواحي لاروشيل يمارس عمله دون ضجة ، لأن أمه كانت تحلم بقضاء آخر أيامها بين أحضان الريف .

وكان قلبه الكبير يتسع لحب الناس جميعا ، ينظر الى الدنيا من خلال منظار وردي بهيج .

وربما كان سبب فرحته وسعادته وتفاؤله انه أمضى جزءا من طفولته معزولا في مصحة صدرية بين الحياة والموت حتى اذا ما كتبت له النجاة شعر كأنه ولد من جديد ، وأن الله قد بعثه مرة اخرى « كان كاثوليكيا » ، وكلما وجد من وقته فرصة من فراغ كل صباح هرول الى الكنيسة ليحضر القداس .

وكما لو كان بيننا اتفاق مشترك ، فلم تكن لنتحدث أبدا في السياسة ، أو الدين ، وان كان قد أبدى لي دهشته ذات مرة من اني لا ادخل الكنيسة أبدا الا لشهود حفل زفاف او جناز !.

***

وارتدينا السراويل الطويلة في وقت واحد ، وكان ذلك يحدث في وقت متأخر عما انتم عليه الآن . وشربنا سيجارتنا الأولى معا ، هو في تكتم شديد وفي خفية عن والدته التي كانت تنهاه عن ذلك ، وأنا علانية لأن أبي لم يبد اعتراضا !.

وشعرنا بقدر متعادل من الاضطراب وخيبة الأمل ان لم أقل بكثير من القرف والاشمئزاز ولكننا لم نتحدث أبدا في ذلك الموضوع .. وحينما انطلق الى هناك مرة ثانية ـ فقد ذهبت بدوري مرة

أخرى وسمعتهم يذكرونه ، انطلق بمفرده دون أن يخبرني أو يطلب مني مرافقته . .

ولقد كان لك في العام الماضي صديق ذكرني مرآه نيكولاس ، هو ذلك الفتى الذي دعوته باسم فرديناند والذي قلت لي ان أباه قصاب خنازير ، الأمر الذي سبب صدمة عنيفة لوالدتك ، وقد حضر مرتين أو ثلاث مرات لزيارتك ، ولا أشك في أنكما خرجتما معا في تلك المرات ، ولكنك لم تعد تذكر لنا عنه شيئا كما اعتدت دائما مع أصدقائك الكثيرين .

هل كان أبي محقا في شعوره بالقلق ؟ وهل كان نيكولاس حقا طرازا رديئا من الصبيان ماكان ينبغي لي أن أصادقه أو أماشيه ؟
كان أبي يعرف عن أصدقائي وما أفعله أكثر مما أعرفه أنا عنك ، ولا أعني أني ألومك على تكتمك أسرارك .

وكنت بطبيعة الحال أخشاه وأهابه أكثر مما تهابني أنت الآن ، ولكنني كنت افهم وأقدر اضطراره لأن يتخذ معي مواقف معينة في بعض الأوقات حينما أتجاوز حدودي أو يبدر مني ما لا يليق من من التصرفات ؛ دون أن أشعر بأي ضيق أو غضب ، بل كنت أتألم من أجله ، لثقتي بأنه انما يفعل أمرا كريها الى نفسه ولا يقصد الا الخير لي ، تماما مثلما يحدث معي الآن حيالك .

كذلك كنت اشعر بالأسف والحزن عليه ، لأنه حتى في الفترات الوجيزة التي كان يختلسها من عمله المضني ليرتاح فيها لا يجد أمامه الا نظرات أمي المشدودة الى الأمام ! وكنت أحسده على سعة صدره وصبره العجيب .

كان يذهب مرة كل شهر الى باريس لأعمال ينجزها في وزارة الداخلية ، وبعض الوزارات الأخرى ، وكثيرا ما كان يمكث بها يومين أو ثلاثة .

هل كانت له صديقة معينة يتردد عليها في تلك المواعيد . . أما تراه كان يترك ذلك للمصادفات وحدها ؟
ومن المفهوم طبعا اني لم أسأله أبدا . . . رغم اني متأكد الآن

من انى لو سالته لاجابنى بكل صراحة وصدق كما ترانى افعل بنفسى ذلك .. لو كنت مكانه .

وكانت لنا بعض لحظات المودة والالفة ، نتبادل فيها بعض الاحاديث القصيرة مساء كل يوم تقريبا مثلما أفعل أنا وانت احيانا ما عدا اننى أنا الذى كنت أزوره دواما واسعى اليه فى غرفته .

وكان الطابق المخصص لاقامتنا فى المحافظة متسع الأرجاء عديد الغرف والأبهاء ، تشغل اختى منه سواء قبل زواجها أو بعده — طرفا بعيدا يطل على الفناء الثانى الخلفى ، أما غرفتى فكانت على الطابق الأسفل . ولم يكن لدينا غرفة عائلية صغيرة للطعام ، فكنا نستعمل المائدة الكبرى المخصصة للمآدب الرسمية والمجاورة للصالون الكبير حيث تقام حفلات الاستقبال والرقص .

وحين كنا نخلو لأنفسنا ونتناول العشاء — الأمر الذى كان يحدث مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع : كان عددنا خمسة حول المائدة المعدة لجلوس عشرين .. يفصل بين كل فرد وآخر فراغ كبير — أبى وأمى ، وشقيقتى وزوجها ، وأنا . وشد ما كنت أشفق على الساقى (فالنتين) الذى كان يتعب لطول المسافة فى توصيل الأطباق الينا .

وما زلت أذكر تلك القاعة التى كنا نجلس فيها للطعام وتلك « النجفة » الضخمة ذات الخمسين مصباحا كهربيا أو أكثر معلقة فوق رؤوسنا والتى لم تكن تضاء قط الا فى المآدب الرسمية ، ونكتفى بزوج من الشمعدانات على طرفى المائدة الكبيرة ، يكاد يكفى لتعرف ما فى الصحون امام عينيك ، على حين كانت تسبح الجدران وباقى الغرفة فى الظلام وعلى الحائط المواجه لمكانى مباشرة فوق راس شقيقتى سجادة باهتة اللون تستطيع بصعوبة بالغة تمييز رسوم بعض الغزلان ، ترعى العشب حول قناة جارية .

وكانت ثمة لوحة كبيرة معلقة على الجدار تمثل فتاة ترمى مجموعة من الأوز ، وما زلت أرى فى خيالى تلك الأوزة الضخمة البيضاء التى انفردت عن شقيقاتها فى مؤخرة الصورة ، وبدت بارزة

وسط الاطار اللامع العريض كأنها أوزة ناضجة تحتل طبقا كبيرا تغرى بأكلها !

ونحن ـ فى شارع ماكماهون ـ لدينا من يقف على رءوسنا فى أثناء الطعام يلبى طلباتنا ، ولكن ما يكاد الخادم يقدم الصنف حتى ينسحب ويتركنا فى هدوء حتى نستطيع أن نتحدث كما نشاء .

بيد انى ـ فى طفولتى وصباى ـ لم أجرب هذه الحرية قط فكنت أشعر دائما بذلك الساقى الأسمر ذى الثياب البيضاء والسروال الأسود والكتفين العريضتين والوجه الصارم كأنه تمثال من البرونز .. كنت أشعر به دائما خلفى يتحرك بخفة القط حاملا بين يديه المغطاتين بالقفاز الأبيض نوعا من الطعام .

وربما استغرب بعض أصدقائك ممن كنا ندعوهم للطعام ، حينما يشاهدوننى أعد المقعد لوالدتك لتجلس عليه أمام المائدة قبل أن أتخذ مقعدى بجوارها فتلك عادة تعلمتها عن أبى الذى كانت من أحد واجباته الا تفوته ولا يغفل عنها أبدا .

وهناك كانت تجلس أمى دون أن تخفض عينيها لتعبر عن شكرها ودون أن تبتسم ! وكأنها احدى ملكات العصور الوسطى تتقبل فى عظمة واستعلاء ضيافة أحد رعاياها وعبيدها المخلصين ! ثم تأكل فى صمت لا تشترك أبدا فى أى حديث أو مناقشة !

وفى أغلب الأوقات كان الحديث مقصورا على فاشيه وشقيقتى، وكثيرا ما كان أبى ـ حين يتضايق من السكون القاتل أو لا يعجبه ما يدور بين ابنته وزوجها ـ ينظر الى قائلا :

ـ وأنت يا ولدى ، ماذا فعلت اليوم ؟

وذلك حتى يغير موضوع الحديث الذى اختاره فاشيه الذى كنت أعتقد دائما انه يتعمد فيه اثارة ابى فسواء كان يتحدث فى الفنون والآداب أو فى الفلسفة أو الموسيقى أو فى القانون أو علم الادارة أو حتى فى « المودة » فى الثياب أو الأثاث ـ كانت آراؤه دائما معارضة لآراء جدك ، وكأنه يجد لذة فى تسفيهه والوقوف فى وجهه !

وأكاد أقسم أن علاقته بشقيقتي التي انتهت بزواجه منها لم تبدأ داخل مبنى المحافظة ، فلم يكن لنا أى احتكاك بالموظفين ما عدا قلة يعدون على الأصابع ، مثل السيد تورينر الرجل العاقل الرزين مدير المكتب الخاص ، وهيكتور لوازو السكرتير الأول ، وأحيانا مع سكرتيرة أبي الخاصة المدموازيل بونوم .

ولا بد انهما تلاقيا في المدينة ، وقد دفعه طموحه الى ان يتخطى الكثيرين ممن هم أكثر منه سنا وخبرة وارفع منه منصبا ، ولكنه كان يعلم ويؤمن بأنه يستحق ذلك وأكثر منه أيضاً فاستأنف قفزاته الى الأمام .

فهل أدرك أبى فيه ذلك الطموح وشجعه عليه ، أو تراه حينما وافق على زواجه ومصاهرته كان مدفوعا بمبدئه الذى لا يحيد عنه فى عدم التدخل فى حياة الآخرين حتى لو كانوا أبناءه ؟

ولو حدث مثل هذا الزواج فى محيط اية اسرة اخرى ، ما حال ضيق يد الزوج عن ان يخرج هو وزوجته ليقيما بعيدين عن أسرتها ، ولكن فاشيه الماكر الذى يخطط للمستقبل ، قد وجد مصلحة كبيرة فى ان يظل مرتبطا بأسرة المحافظ فى نظر الخاصة والعامة حتى يظل دائما فى الصورة ، وحتى تفتح أمامه جميع أبواب المجتمع اكراما لخاطر حاكم الاقليم !

ولو ظلت آرليت ـ حتى بعد زواجها ـ منضمة الينا قلبا وقالبا ـ كما كانت وهى بعد فتاة ، ما كانت هناك مشكلة فى محيط الأسرة ولكن الذى استرعى نظرى ـ وكنت لم أتجاوز بعد سنك الآن ـ هو أنها كانت ـ وبين كل يوم وآخر ـ تزداد عنا بعدا لتنضم جسما وروحا الى زوجها !

وكنا حتى لحظة زواجها ننظر اليها كأى فرد من أسرة لافرنسوا بل لقد كانت أكثر اتصالا وارتباطا بأبى منى صداقة ومودة ، وكثيرا ما كنت أراهما على المائدة يتبادلان النظرات والابتسامات الامر الذى يدل على المشاركة فى الفكر وانهما كانا يتحدثان طويلا فى الفة وتفاهم .

ولكن ما كاد فاشيه يدخل في حياتنا ـ خطيبا لها ـ حتى بدأت آرليت تتغير تماما في طباعها وطريقة حديثها حتى الطريقة التي كانت تصفف بها شعرها!

ولعل اكثر ما أثار دهشتي ان نظريتي في الحب قد انقلبت رأسا على عقب وانا أرى الطريقة التي بدأ فاشيه يعامل بها اختي! لم يكن يتملقها أو يسعى لارضائها قط، بل كانت هي التي بدأت ـ بعد أسابيع قليلة تعمل على تلبية طلباته وارضائه في مذلة وخضوع تخشى عليه من النسيم حتى لا يجرح خديه! لا تشكو ابدا مهما أساء « الاتيكيت » وقواعد الأصول في معاملتها .. كما يحدث كثيرا مع محدثي النعمة.

وبعد أن نشر مجموعة من القصائد في عدة مجلات مختلفة بدأ يكتب قصة طويلة وكانت آرليت تسهر طوال الليل تكتب له على الآلة الكاتبة وهو يملي عليها:

« على المرأة أن تكون مرآة لزوجها تنعكس عليها طباعه وشخصيته ».

وكان ابي يصغي في صمت، وربما قطب حاجبيه عبوسا في بعض الأوقات أو يبتسم متعجبا وهو يرى ابنته سليلة أسرة لافرنسوا تبذل طاقتها في خدمة زوجها بكل الوسائل على حين أنه يتقبل كل ذلك كأنه حق من حقوقه!

كان موضع حسد من زملائه موظفي المحافظة لأنه استطاع ان يفوز بابنته، فشاء أن يتمم مركب النقص في نفسه فتمادى في اظهار عدم اكتراثه بذلك النسب، وكأنما نحن الذين سعينا اليه وكأنما هو الذي أولانا شرفا كبيرا حينما تواضع فصاهرنا!

ومن أمثلة ذلك أنه كان آخر من يجلس الى مائدة الطعام حتى نضطر جميعا الى انتظاره، وكان يحضر مرتديا روبه المنزلي وبدون ربطة عنق، منتعلا في قدميه الخف الذي يستعمله في غرفة النوم.

وينظر الى زوجته وهو ينفخ من أنفه في استياء:

ـ هلا تركتموني نصف ساعة أخرى حتى أنتهى من اتمام الفصل !

وهو يقصد بذلك أن يظهر اشمئزازه من تمسكنا بتقاليد المائدة، ويعبر عن نفوره من المواعيد التى حددناها لتناول الوجبات !.

واذا كانت السنوات الطويلة لا بد أن تترك أثرا على كل انسان يظهر عليه بوضوح كلما تقدم به العمر ، فان قاشيه ـ من دون الناس جميعا لم يطرأ عليه أى تغيير ، لم يزد وزنه درهما ولا حجمه قيراطا عما كان فى صدر شبابه سوى أن الدهاء والمكر وخبث الطوية التى كان يكتنزها فى أعماقه بدت أكثر ظهورا فى عينيه وحول فمه !

كان يذكرنى بذئب عجوز فى حركاته ترقب وحذر ، ويتأهب دائما للانقضاض والفتك بأية فريسة يسوقها سوء الحظ بين انيابه !.

حتى قصصه التى لا أحبها وان كنت أعترف بأنها قوية ومحبوكة الأطراف ـ تؤكد روحه الهجومية ورغبته المدفونة فى التشفى والانتقام ، أما مقالاته التى تتسم بالتهكم اللاذع والنقد المسموم الهدام والتى تفرد لها بعض الصحف أعمدة خاصة ـ فهى التى اكسبته الشهرة واحترام الناس ورهبتهم .

وبعد العشاء يثب واقفا يكاد يقلب مقعده فى وقاحة قبل أن يقدم الساقى أطباق الحلوى وينتهى العشاء ويعود لاستئناف عمله ثم تتبعه أختى بعد فترة قصيرة وتنطلق أمى الى فراشها مبكرة أما أبى فيغادر الطابق المخصص لسكنانا ويذهب الى مكتبه الرسمى ليزاول عمله فترة المساء .

وقد يعتقد الناس جميعا كما كنت اظن وقت ذاك انه يزاول أعمال وظيفته ، يقلب بين الأضابير والملفات التى لم يتسع وقته ليحثها خلال النهار بسبب دخول وخروج مديرى الادارات والأقسام ورنين اجراس التليفونات .

بيد أنى اكتشفت انه كان فى تلك الساعات المتاخرة من الليل وفى ذلك المكتب القابع فى نهاية الممر الطويل بين مكاتيب الموظفين

التى خلت منهم ، كان يخلو لنفسه ويغلق عليه باب مكتبه يستمتع بلحظات ممتعة يشبع بها هواية خاصة بعيدة عن روتين العمل اليومى .

وكانت القـراءة أفضل هواياته وأحبها لنفســه ، ينكب على كتابه وقلمه الأحمر فى يده يضع خطوطا تحت عبارات بأكملهـا ويضيف على هامش الصحيفة تعليقاته الطريفة وانطباعاته النفسية بخط جميل دقيق .

وكان ذلك من بين الأسباب التى جعلتنى أتمسك بنفائس الكتب التى خلفها أبى ، حتى لا تقع بين براثن ذلك الذئب فاشيه مهما كانت التضحيات !

وكنت حالما أنتهى من أداء واجباتى أنطلق الى أبى لألقى عليـه تحية المساء ، وبالرغم من أنه لم يكن بيننا فى معظم الأحايين الكثير مما يقال فقد كانت تلك اللحظات من أسعد أوقاتى ، أفتح باب مكتبه الخارجى المبطن باللباد والمطاط وشرائح النحاس اللامع . ثم أطرق الباب الداخلى فى رفق وأدفعه دون أن أنتظر جوابا ، وهناك يجلس أبى بجوار المدفأة المتأججة نيرانها شتاء ، أو بجانب النافذة الكبيرة المفتوحة على الفناء الخلفى صيفا يدخن سيجارة فى تلك الساعة من الليل ، والى الآن ما تزال رائحة التبغ تنبعث فى أنفى ، وما زالت سحب الدخان الزرقاء تبدو أمام عينى وهى تدور فى حلقات حول ضوء المصباح ذى الغطاء المظلل والقابع خلف مقعده .

ويستدير نحوى قليلا وهو يغمغم :

ــ هل هذا انت يا ولدى ؟

وأقف بجوار المدفأة شتاء أو بجانب النافذة صيفا دون أن آتى بحركة أو انطق حرفا حتى يتم قراءة القطعة أو الفقـرة التى كان مشغولا بها .

وفى النهاية يرفع راسه ويرمقنى قائلا :

ــ حسنا ؟

والآن وبعد أن صرت أبا أعلم يقينا انه لم يكن يقــل عنى اضطرابا وحيرة !

ـ هل استذكرت جيدا ؟
ـ نوعا ما .
ـ أسعيد أنت ؟

ولم يكن حديثنا ـ في اكثر الأوقات ـ يزيد كثيرا عن ذلك ؛ فانحنى فوقه وكتابه منشور على ركبتيه ، وأطبع قبلة خفيفة على جبينه ثم انطلق الى فراشي ، وربما تبادلنا شيئا عن مجريات الأمور في ذلك اليوم .

لم يكن من طبعه استدراجي او محاولة اكراهي على الافضاء بما أعتقده في نفسي سرا .

وفي ليلة ما حينما ذهبت ألقي عليه تحية المساء اراني فقرة في كتاب كان منهمكا في قراءته :

« قلما يصل الأبناء الى حقيقة حب الآباء لهم ورغبتهم الخالصة في تقديم النصيحة الصادقة ، الا بعد أن يتجاوزوا المرحلة التي يحتاجون فيها فعلا الى النصيحة والارشاد »

ولم اصل قط الى معرفة اسم ذلك الكتاب او حتى اسم مؤلفه ، كذلك لم اسأل أبي عنه حتى لا أقلل من قيمة الرسالة الصامتة التي كان يوحي بها الي والتي يخيل الى أنه ربما ترك كتابه مفتوحا عندها حتى أصل وأقرأها بنفسي ..

والحقيقة التي لا مراء فيها أنني لم أدرك قط اى دور لعبه أبي في حياتي . ولسوف يستمر أثره باقيا خالدا في نفسي حتى بعد مماته الا بعد فوات الأوان .

كان يحاول دائما أن يعلمني كيف نتخاطب بلغة العيون تماما كما كان يفعل هو حين يرمقني بنظراته الفاحصة ، يستشف ما يدور برأسي . ويقرأ ما يختلج بين جوانح نفسي دون حاجة الى كلام أو حديث ؛ ومن ذلك اني فهمت حينما رأيت الحزن في نظراته ذات يوم انه قد حدس بأني أميل الى الجانب الذى يقف فيه خصمه بوريل، وأن في نفسي ثورة عارمة ضد أولئك المحكومين الذين يقبلون الخنوع ويدينون بالطاعة العمياء دون مناقشة من امثال نيكولاس ووالدته ؟

وكثيرا ما سألنى ضيوفنا كما اعتاد أصدقاؤنا أن يسألوكَ ؟

ـ ما الذى اعتزمت أن تكونه عندما تكبر ؟ أمحافظ مثل أبيك ؟

وكنت فى طفولتى أجيب نفيا ، وكنت أقولها بحدة وخشونة طالما أثارت ضحك الجميع .

ـ طبيب ؟ محام ؟ مكتشف ؟

وكنت أعبس غاضبا ، وفى نفسى احساس غامض من الخجل لأنى عجزت عن الجواب . وكان أبى يسرع لنجدتى . فيفير الحديث فى موضوع آخر .

ولقد كان لمعظم أصدقائى فكرة أو هدف يضعونه نصب أعينهم منذ طفولتهم ، يسعون جاهدين لتحقيقه دون أن يحيدوا عنه قيد أنملة ، وفى النهاية يسعدون بتحقيق أحلامهم .

أما أنا فقد كان مجرد التفكير فى ذلك السؤال يفزعنى ، وأشعر بتقصيرى لجهلى بالمكان الذى سوف أشغله ، كما لو كان ذلك هروبا منى نحو تأدية واجباتى فى المجتمع ، وذلك على حسب تفكيرى كان لا يعادله الا شعور الجندى الجبان الذى يفر من ميدان الحرب متعللا بأوهى الأسباب .

وحين كنت أخلو لنفسى وأبدأ فى تحليل رغباتى وميولى حتى أصل الى معرفة نوع العمل الذى يروقنى وأعتقد أنى سأفيد وطنى به فى صدق وعزيمة أجد نفسى عاجزا تماما عن العثور على ضالتى حتى بلغ منى اليأس حدا آمنت فيه بأنى شخص فاشل لن يوفق فى أى مجال ، وربما انتهى بى الأمر فأصبح كما مهملا معزولا عن تأدية أى دور هام فى المجتمع .

كنت أشعر بغضاضة فى ان أصير عبدا لأية وظيفة تربطنى فى مكان واحد ، كذلك لم أكن قوى البنية مشدود العضلات ميالا الى التفكير والابتكار بحيث أختار العمل الآلى أو اليدوى ، ولم أكن أهوى الرياضيات حتى أكون مهندسا ، ولا علم الحياة والحيوان حتى أغدو طبيبا ، وهكذا كانت تمر أمامى شتى الصور ، فأنفر منها جميعا .

اما صديقى نيكولاس فكان يصر على أن يصير طبيبا مهما طال به الزمن !

وظلت تلك حالتي حتى بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وحينما وجه لي أحد النواب ذلك السؤال التقليـــدى مرة اخرى وجدت نفسي أجيبه فورا ودون سابقة تفكير :

ـ اظنني سأدرس القانون .

وفوجىء أبي بذلك وكان حاضرا ، فابتسم مسروراً

هل أسعده أن أقرر ذلك اخيرا ، وأسلك الطريق الذى طرقه قبلى ؟

ذلك ما اعتقدته ، ومن ثم لم أغير اجابتي قط .

ـ سوف أدرس القانون .

وكما أخبرتك في مرة سابقة ، لم يكن ذلك لحب دفين مفقود ، أو التعلق بالقضايا والغوص في مشاكل الناس ومتاعبهم : بل اني كنت ارتعد هلعا لمجرد تصوري بأني سأقف في حرم العدالة المقدس أواجه القضاة المحترمين والخصوم والمحامين واتلاعب بالألفاظ الرنانة ، وأفسر مواد القانون بالطريقة التي تنقذ رأس موكلي من حبل المشنقة نظير اجر معلوم !

ولكني وجدت في تلك الاجابة ملاذا هدأ به بالي وارتاحت اليه نفسي فلم أعد أشغل قلبي وتفكيري في البحث عن مستقبل لي بعد ذلك واذا كان في ذلك ما يبعث السرور في نفس ابي فلا بأس أن احذو حذوه ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ونجحت في البكالوريا ، كما نجح ايضا نيكولاس في العام نفسه « ١٩٢٦ » بعد زواج شقيقتي ببضعة شهور .

وان الدهشة لتستبد بي حينما أرى تلك الأعوام الطويلة بمــا حفلت من احداث ومشاعر وأحاسيس وقد اختصرتها في صفحات قليله تقرؤها في دقائق ؛ ومع ذلك فاني ابذل جهدي لأحدثك بكل شيء واشعر في بعض الاحيان بأني اضيف أشياء كانت مجهولة لي في صباي وطفولتي ، ولم تتكشف لي الا الآن .

وفي اكتوبر دخلت كليــة الحقوق في « بواتييـــه » حيث استأجر لي والدي غرفة مفروشة في احد البيوت الخاصة خلف

مجلس المدينة ، كان بيتا صغيرا جميلا يملكه السيد بلانكبان وزوجته ، وأعاد لنفسي ذكريات بيوت مدينة فتيلي ورائحة مطبخ والدة نيكولاس .

واكاد ارى أبي الآن أنيقا رشيقا نبيل المنظر كما كان دائما ؟ يقف على باب غرفتي بعد أن تركتنا صاحبة البيت نخلو لأنفسنا .

كانت جدران الغرفة مغطاة بورق أصفر اللون مزين بوردة صغيرة حمراء ، وبها سرير خشبي متين الصنع عليه حشية سميكة وملاءة بيضاء ، واغطية صوفية من نوع ممتاز ، وفي المدفأة نار حمراء تتأجج ، ومن خلال النافذة تبدو أسطح البيوت المجاورة المغطاة بالقرميد الاحمر .

وفتح أبي النافذة ، ونظر يمينا ويسارا ، وكان أحد باعة الفاكهة قد توقف لتوه بعربته أمام باب الدار ، وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحا ، والسماء ملبدة بالسحب تنذر بأمطار وشيكة الهطول ...

ـ حسنا يا ولدى ؟.

وأظن أني ابتسمت ابتسامة باهتة .

وفي حركة آلية مضى يفتح أدراج « البوفيه » المجاور لصوان الثيابى ، ثم فتح ضلفتي الصوان حيث كانت « الشماعات » تنتظر ثيابى ، ثم راح يتأمل قطعة السجاد السميكة بجوار الفراش .

ـ ينبغي أن أعود الى لاروشيل .

ـ أجل .

وكنا نقف : أحدنا في مواجهة الآخر ، كلانا يشعر بالاضطراب .

وكان أبي هو الذى نفض عن نفسه الحيرة والاضطراب ، فقال :

ـ حسنا ، هذه هي الحياة !.

كلمات قليلة تحمل كثيرا من المعاني والمشاعر .

وقبل أن يدلف من الباب خارجا استدار نحوى وهو يقول :

ـ هل سنراك في أيام السبت ؟

ـ اعتقد ذلك ، بل من المؤكد اذا لم ...

ـ الى اللقاء يا ولدى .

وهكذا تركني بمفردى أواجه المستقبل معتمدا على نفسي لأول مرة .

الفصل السابع

كنت وقت ذاك في الثامنة عشرة من عمري ، قوي البنيان وشيق القوام نشيط الحركة فخورا بدراجتي البخارية الجديدة التي أهداها لي أبي لمناسبة نجاحي في البكالوريا ، ولم أعد طفلا يلبس البنطلون القصير أو حدثا بالصف الثانوي ، بل في المرحلة الجامعية أنتظم في سلك الرجال ، واتنفس بملء رئتي في غرفة خاصة بي على أبواب حياة جديدة ، أخطو خطواتي الأولى بغير قليل من الرهبة والخوف .

وذهبت الى لاروشيل يوم السبت من ذلك الأسبوع ، ثم كل سبت من الأسابيع التالية ماعدا الاسبوع الثالث ، حيث كنت أعود الى غرفتي التي خيل الي أنها تغيرت كثيرا،وأتردد على قاعة الطعام لظلالها وأضوائها الخافتة ، حيث تواجهني نظرات أمي المشدودة للأمام وصوت فاشيه الكريه لأذني ووجهه الذئبي المقوت .

ولم أتلق من نيكولاس سوى بطاقتين يطمئنني فيهما على أن صحته جيدة وعلى أن أموره تسير على خير ما يرام في بوردو وخاصة أن أساتذته الجدد « قوم مهذبون » واضاف أن لديه كلاما كثيرا يملأ عربات سكة حديدية ويدخره لي حتى نتقابل في أجازة عيد الميلاد .

ويدهشني أن أتبين فجأة كيف تخونني الذاكرة فاغفل بعض التفصيلات الهامة حينما أصل اليها ، أو بعبارة أخرى اجد نفسي عاجزا عن ترتيب الوقائع على حسب توقيت حدوثها وارى الصور تتابع أمام ناظري في سرعة خاطفة الأمر الذي يتعسر عليها ربطها بما كانت عليه من ترتيب ونظام .

فمثلا احدى تلك الصور أرى فيها نفسي ـ يوم الأحد الأول من سفري ـ واقفا بميدان الجيش بمدينة لاروشيل . واقفا في الردهة الخارجية ادخن احدى سجائري في أثناء الاستراحةبسينما اوليمبيا ، ومر بي أحد رفاقي السابقين يتأبط ذراع صديقة حسناء ، وما كاد يلمحني حتى اشار لي بعينه باسما وكان الطقس في تلك الليلة باردا والسماء ملبدة بالغيوم فعدت مباشرة الى مقري

بدار المحافظة ، وكانت شقيقتي وزوجها يستقبلان بعض الأصدقاء في غرفة الجلوس ويتحدثون جميعا بصوت مرتفع ، فتسللت مباشرة الى غرفتي ألتمس بين جدرانها الباردة دفئا .

ومنظر آخر في بواتييه : في الأحد الثالث الذي لم أسافر فيه الى لاروشيل ، حيث ظلت السماء تمطر مدرارا منذ الليلة السابقة، وفي الصباح كانت الطرقات كلها مغطاة بالجليد . فانطلقت الى المشرب وانتحيت مائدة منعزلة ، احتسي كأسا من الجعة وأراقب بعض طلبة الصف الثالث وهم يلعبون البلياردو .

صور كثيرة أنشرها أمامي كأوراق اللعب ، ومن بينها أيضا ما حدث في ليلة عيد الميلاد حينما كنت أجلس مع صديقي نيكولاس في أحد مقاهي لاروشيل نتحدث ، واذا أمسك نيكولاس بطرف أي حديث ، فلك أن تراهن بما شئت انه لن يكف أبدا عن الخوض فيه ، وهكذا ظل يتحدث في موضوع واحد حتى الواحدة صباحا حينما أوصلني في الطريق الى باب المحافظة ..

وقال : لابد من ان نجد من يشاركنا في عطلتنا ، ولسوف أعثر على ضالتنا سريعا وحتما .

وكانت ثمة شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم تحتل غرفة الجلوس لم تكن لنا ، انها شجرة رسمية اقيمت من اجل أطفال وأبناء موظفي المحافظة والموظفين انفسهم ، ولقد احتفلوا جميعا بأخذ هداياهم من بين فروعها عصر ذلك اليوم ، وكانت أختي قد انطلقت مع فاشيه لمشاهدة بعض الاحتفالات الليلية وأمي نائمة ، ووجدت أبي يقرأ في هدوء بغرفته وفي ركنه المحبب الى نفسه ، وكان دخان التبغ يملأ الغرفة اكثر من ذي قبل .

ـ ميلاد سعيد يا أبتي .

ـ ميلاد سعيد يا بني .

ـ هل أمضيت وقتا طيبا ؟ .

ـ تحدثنا طول السهرة ، انا ونيكولاس في مقهى دي لابيه ..

وكانت معرفته بنيكولاس سطحية يراه حين يحضر لزيارتي ؛ لكنه لم يستوقفه ولم يتحدث معه .

ـ هل «ماما» على ما يرام ؟.

ـ نعم ، لقد بكرت فى الذهاب الى فراشها كعادتها وساحذو حذوها بعد قليل ٠.

ولا ريب فى أنه كان يريد الانتهاء من الباب الذى يقرأ فيه أو ربما الكتاب كله .

ـ طابت ليلتك .

ـ طابت ليلتك .

* * *

واستيقظت فى الصباح التالى محموما ، الالم قطيعة فى كل جسمى ، طعم مرير فى لسانى ، وحين حاولت النهوض اصطكت ركبتاى فلم تقو ساقاى على حملى ، ولم تمض سويعات حتى ظهر البرد على وجهى فاحمر أنفى ، واصابنى الصداع حتى كاد ينفجر له رأسى ، ويبدو أنه كان لدى استعداد للاصابة بالانفلونزا ، وشجعها السهر الطويل .

وأمضيت ثلاثة أيام لا أخلع عنى منامتى ، أجر جسمى المنهوك تنقلا فى صعوبة بالغة من الفراش الى المقعد الكبير ذى المسندين ، أحاول القراءة أحيانا ، ثم أتطلع من النافذة أحيانا أخرى ، وكرهت السجائر فقد كان للدخان مذاق كريه فى فمى .

كان عيد الميلاد فى ذلك العام شديد القسوة قارص البرودة ، حرارته هبطت عدة درجات تحت الصفر فتجمد كل شىء ، حتى الحياة نفسها تجمدت عن الحركة ، وفى الساعات الأولى من الصباح كنت أشاهد المؤمنين الذين هرعوا لحضور قداس الصباح فى الكنائس ، والمخمورين الذين لفظتهم المشارب والحانات بعد سهر طويل ضحكوا وعبثوا ورقصوا فيه ما شاء لهم المرح ، وكل من اضطرته ظروفه للوجود خارج الابواب فى تلك الساعة كانوا يرتعدون وقد غطى الجليد رءوسهم حتى أقدامهم ، وكأنه العهن المنفوش ، بل خيل أن السماء والأرض حتى الحجارة التى شيدت منها المنازل وارصفة الطرق واعمدة المصابيح كلها كانت تلمع ببياض ناصع كأنها نصال سيوف أو خناجر حادة ماضية .

واقبلت طباختنا بياتريس تحمل لى افطارى ، ولكنى نحيته جانبا ولم المسه وبعد ذلك جاء أبى بمنامته وروبه المنزلى .

ـ أمريض أنت ؟.

ـ انفلونزا بسيطة على ما أعتقد .

ومكث بجوارى حوالى عشر دقائق ثم انطلق الى مكتبه ، ربما ليستأنف القراءة .

ولم ستيقظ شقيقتى وزوجها الا وقد انتصف النهار،فحضرا بعد الغداء لزيارتى ، دخلت آرليت فى تردد تسألنى عن صحتى وهى تختلس النظرات نحو زوجها الذى رفض الدخول الى غرفتى وظل واقفا بجوار الباب المفتوح لأنه يخشى الاصابة بالعدوى . ثم عجلا بالانصراف معتذرين بمشاغلهما .

ولم يتصل بى نيكولاس تليفونيا فى ذلك اليوم ، ولا فى اليوم التالى ، حقيقة لم يكن بيننا موعد محدود لأى لقاء ، ولكننا كنا متفقين على قضاء الجزء الأكبر من اجازتنا معا ، الأمر الذى ضايقنى لعدم سؤاله عنى .

لماذا شعرت بالضياع والوحدة ؟ كان كل ما حولى صامتاساكنا سكون القبور : دار المحافظة ذات الطوابق الكثيرة والأجنحةالمتعددة وعشرات المكاتب والغرف التى لاتخلو أبدا من الحركة والعمل والموظفين والسعاة وأصحاب المصالح والأعمال ـ كانت كلها مهجورة خاوية على عروشها فى عطلة عيد الميلاد .

حتى حركة المرور فى الميدان الكبير كأنما قد أصيبت بالشلل : عدد ضئيل من السيارات ، أقل كثيرا مما اعتدنا رؤيته ، ونفر قليل من المارة يهرولون مسرعين وقد دسوا أيديهم فى جيوبهم ورفعوا ياقات معاطفهم على حين كنت ألمح حلقات كثيفة من الدخان ينبعث من انوفهم وافواههم تطوف حول رءوسهم .

واذكر انى رأيت اسرة تمضى فى الطريق ـ قرب الظهيرة ـ لعلها كانت فى سبيلها لزيارة جد او جدة لمناسبة العيد ـ مؤلفة من خمسة افراد ـ من بينها ثلاثة أطفال . ارتدوا جميعا ثياب العيد الجديدة الزاهية . واحد الأطفال فى الرابعة او الخامسة

حول رقبته وشاح ثقيل احمر ، وفوق راسه طاقية صوفية حمراء، وكانت أمه تجذبه وتجره فى عنف وقوة حتى يسير وهو فى عناده العجيب يبدو مشاكسا لا يريد .

ويبدو أن الوالدين كانا فى عجلة من أمرهما ، أعصابهما قلقة متوترة بعد سهر طويل وصباح حافل بالصخب والضجيج مع ما اقتضاه ارتداء الجميع لثيابهم من عناء وجهد كبير ، فكنت أرى أفواههم تفتح ثم تغلق دون ان اسمع حديثهم من خلال زجاج نافذتى ، وأخيرا دفعت الأم طفلها الصغير فى ظهره فسقط متزحلقا بثيابه الجديدة فوق الأرض المبتلة .

ولابد انها كانت تأمره بأن يستوى على قدميه ، وتهدده بحرمانه من لعبه وهداياه او بأية عقوبة أخرى ، ولكن الشيطان جعل اذنا من طين ، واخرى من عجين ! وكأنه وجد متعة عميقة فى أن يثير أعصاب والدته الى النهاية ، فلما نفذ صبرها وضاق صدرها تحولت نحو زوجها تنفث ثورتها وتصب عليه غضبها ، ولا شك فى انها اتهمته بالوقوف ساكنا مكتوف اليدين كأنما الأمر لا يعنيه ، ووصمته بالضعف والتخاذل وتدليله للأولاد وافساد اخلاقهم ، أو شىء من هذا القبيل .

وكان يرتدى معطفا قديما أسود اللون ، ووقف برهة مترددا ينصت لصياحها فى ضيق ، وأخيرا جذب وليده من يده جذبة قوية حتى اقامه على ساقيه ، ثم لطمه على وجهه فى عنف ،ولا أشك أبدا فى أنها آلمت الأب أكثر مما تألم لها الطفل .

ولقد هزتنى تلك اللطمة ، فوثبت من مكانى كأنما قد لدغنى عقرب ، وفى تلك اللحظة شعرت برباط خفى يجذب بين روحينا ، أنا وذلك الأب المسكين ،وشد ما كانت دهشتى حينما رفع نظره الى أعلى وشاهدنى خلف النافذة ، ولا أستطيع أن أصف لك معانى الاسف والخجل التى قراتها فى وجهه تلك اللحظة وهو يطاطىء راسه كأنه يعتذر للدنيا بأسرها عما فعل .

***

لم يتصل بى نيكولاس فى اليوم الثالث ،

وفى اليوم الرابع سمعت طرقا على البـــاب فقلت « ادخل »
واذا به نيكولاس يحمل معه نسيم الحياة والدنيا خارج تلك المقبرة
التى أسكننى فيها المرض ، وكانت ثيابه مبتلة بالماء عليـــها بعض
آثار الجليد .

ـ قيل لى : انك لست على ما يرام ، وأرجو ألا يكـــون الامر
خطيرا ؟.

ولم يتريث حتى أجيب ، كان متحفزا ممتلئا بالأنبـــاء التى
يدخرها لى بتلك التطورات التى بدأت تحـدث له فى بوردو . وقع
أسيرا لها ولم يستطع الفكاك منها .

ـ لدى سيل من الأنباء يا صديقى العجوز ، أنباء طيبة ، أنباء
مثيرة سوف تجعلك تقفز من فراشك فى التو والســـاعة ! اتذكر
ما كنا نتحدث فيه ليلة عيد الميلاد ؟.

كانت وجنتاه محمرتين بعد أن لفحته برودة الهواء القارص
فى الخارج ، ولم ينتظر حتى يجلس ، كان يتحرق انفعالا ، نافد
الصبر غاضبا حينما رآنى أجلس هادئا فى مقعدى الوثير وقـــد
دثرت ساقى بغطائى الصوفى الثقيل وكأنى عجوز كسيح ،وبالقرب
من يدى ابريق من البللور به عصير الليمون .

وكان يصيح فى أنفاس لاهثة ، كأنما قد قطع الدرج الى غرفتى
عدوا .

ـ ابشر يا ولدى ! لقد واتانى الحـظ الســـعيد بمحظيـــة
موفقة و ...

ـ اتسمح لى بالتدخين ؟

ـ بالطبع .

ـ وانت الا تدخن ؟

ـ ليست بى رغبة الآن .

ـ أعرنى سمعك وانصت جيدا لما أقول : اننى سأبحث الك عن
عروس ممتازة ولعلى أوفق .

ولقد كان نيكولاس يتميز على الدوام بروحه التى تفيض دعابة
ومرحا .

ولابد انه قد صعق لجمودى وعدم تجاوبى لروحه المتلهفة وحماسته المتدفقة ، كنت انصت اليه دون اهتمام او اكتراث ، وهو الذى يحاول أن يكسب كلماته رنين النصر ، وما كان ذلك حسدا منى لما نال من نعيم قد حرمته ..

وجلس أخيرا على أحد المقاعد بوضع عكسى وجهه الى المسند عاقدا ذراعيه حول ظهر المقعد . وهو يجذب انفاس سيجارته من حين لآخر وعيناه تلمعان غبطة وسرورا حتى قضينا سهرة ممتعة فى شتى الاحاديث .

الفصل الثامن

كنت امر خلال أهم عامين من مراحل حياتى ، بل اجمل واخطر لحظات عمرى ، ومع ذلك فلم اكن أدرك ذلك ، ولم أكن لاعترف به لأى مخلوق فى الدنيا ، ربما كان ذلك لوجود فارق كبير بين ماكنت آمل فى أن يحدث لى ، وما وقع لى فعلا ، ومن العسير أن توقظ أى انسان من حلم جميل لذيذ الا اذا ركلته بقوة !.

وحتى الآن .. مازالت تلك المحاورة الخالدة التى تدور بين كبار السن ومن يصغرونهم .. تبعث فى نفسى الكثير من الحنق والغضب ، بل لقد شاهدتك بنفسى حين تسمع ذلك السؤال .. تنكمش فى نفسك برغمك فى شك وارتياب :

ـ كم عمرك ايها الفتى ؟.

ويجيب الشاب مترددا ، لانه تعلم ان يتأدب مع من يكبره .

ـ ثمانية عشر عاما . يا سيدى .

والاجابة هى هى دائما لا تتغير ، فالسائل يهتف متكلفا الدعابة والضحك :

ـ أحلى ايام العمر ، انى لاهب ما املك حتى اعود لذلك العمر مرة أخرى . وربما أردف وهو يتنهد من أعماقه :

ـ على شرط ان يكون لى ما لدى الآن من تجارب !.

اى تجارب يعنيها ذلك الأحمق ؟ هل الانسان لن يستطيع فى

حياته الواقعية أن يقف بطموحه عند خط مرسوم ، أو يطفىء ظماه الشديد للوصول - مهما فعل - الى قمة الاشباع والاكتفاء اللانهائى ؟ كأنكم أيها الشباب لم تصلوا الى تلك النتيجة بعد ! .

ويتشوقون عن براءة الطفولة وجمالها كأن أطفالنا لا تواجههم منذ أن يدرجوا على الأرض ، مئات المصاعب والمشاكل المؤلمة التى يحاولون مناقشتها بينهم وبين أنفسهم .

ونحن نتلهف فى شره ونهم على السعادة ، ونشعر بأنها فى متناول ايدينا ، ولكن ما تكاد نمسك بها حتى تفلت من بين أصابعنا كالزئبق ، ونقبض على الهواء بسبب تافه لم يكن فى الحسبان قد يكون مجرد ابتسامة ساخرة او كلمة تفلت منا دون قصد !.

* * *

ولقد حدثت بالأمس احدى تلك المشادات العائلية العنيفة التى قلما تحدث فى حضورك بل لعلها الوحيدة التى شهدتها أنت ولو وقعت فى ظروف أخرى ما كلفت نفسى عناء الاشارة اليها فى هذا المقام وخاصة أنى الآن أحدثك عن شبابى ، ولكنها كانت مهزلة لم تخل من فائدة ومغزى عميق فى الوقت نفسه ، ولذلك فأنا اذكرها لانها جاءت فى الوقت المناسب لترسم صورة ناطقة عن سلوك الاباء نحو الابناء ؟

ومن الغريب انه لم يكن ثمة اية مقدمات ، أو كما يقول الانجليز (عاصفة والسماء صافية) ، وكنا نجلس على مائدةالغداء حوالى الواحدة والشمس تغرقنا بأشعتها الساطعة والجو بديع وكل شىء جميل حتى زهرة الجرانيوم المملوكة للآنسة أوغستين كانت كأنها ترقص من السعادة .

ولا اتذكر فيم كنا نتحدث ؟ لكنه كان حديثا مرحا لا أهمية له حينما التفتت أمك فجاة وكنت قد نسيت أنه يوم الخميس .

- هل ستأتى معى لتزور عمتك يا جان بول ؟.

ولم اكن أعلم ان عمتك تقيم حفل استقبال فى بيتها ، كذلك كنت انصت للحديث بنصف أذن ، وسمعتك تسألها :

ـ متى ؟.

ـ حوالى الخامسة ، وسيكون هناك بعض الشـخصيات ممن يفيدك كثيرا ان تتعرف بهم ..

وكنت أكره هذه العبارة ، ومع ذلك فلم تطرف لى عين ، ولم اشأ أن أؤثر عليك ، ولمحت التردد والحيرة فى عينيك ، وكنت أفهم ذلك جيدا .. التردد الذى يصيبك ويصيب كل الشبان فى سنك حينما تعترضهم عقبة من العسير تخطيها ، ولابد من تخطيها أيضا .

ـ هذا شىء يؤسف له حقا يا «ماما» .

ـ ولماذا ؟.

ـ لأن على واجبا منزليا لابد أن أنهيه عصر اليوم فى الرياضة والحساب .

ـ ولماذا لا تبدؤه فورا ؟ .

ولاريب فى أن من حق أمك ـ وقد غدوت رجلا ملء ثيابك ـ ان تفخر بك أمام الناس ، ولكنها تغفل عن أن أصدقاءها لا يمكن بالضرورة القصوى أن يكونوا أصدقاءك ، وانك لا تشعر بأى حب أو رابطة تربطك بمن يترددون على صالون فاشيه أو عمتك آرليت ، ولا يروقك ذلك الوسط أو يبعث فى نفسك أى صدى من متعة أو اهتمام تماما كما أشعر انا شخصيا .

ـ سأحاول ذلك يا أماه مادامت هذه مشيئتك حقا ، ولكنى لن أستطيع أن أؤكد لك .

وكان من عادتها ـ اذا ذهبت لاحدى حفلات الكوكتيل التى تقيمها عمتك ـ أن تعود على العشاء ، وكثيرا ما كانت تتصل بنا تليفونيا وتطلب أن نتناول طعامنا بدونها ، فلماذا عادت هذه المرة فى وقت مبكر وفى حالة نفسية ثائرة ؟ .

ولقد وجدت صديقك الجديد ـ زابو ـ معك فى غرفتك ، ولم تبد أى تعليق على ذلك وقتئذ فى مواجهته ، بيد أنها ما كادت تجلس للعشاء حتى انطلقت تنفث من غضبها ..

خاطبتني قائلة :
ـ آلين ! أتعرف لماذالم يستطع جان بول مرافقتي عصر اليوم؟ .
ويبدو أني أصاب بالصمم أحيانا !.
ـ ألم تسمع ما قلت ؟.
ـ بلى طبعا .
ـ ولماذا لا تقول شيئا ؟.
ـ هل سمعته يتحدث عن واجب الحساب المنزلي الذى كان «من الضروري» أن ينهيه ؟.
ـ اجل .
ـ وهل تعلم ما ذلك الواجب الذى حال بينه وبين مرافقتي ؟.
وبدأت أنت تقول في هدوء :
ـ ارجو أن تعيريني سمعك يا أماه ، دعيني أوضح الأمر لأبي.
ـ ليس هناك ما يدعو للايضاح ، هل حصل أو لم يحصل أني وجدتك مختليا بصديقك الجديد الذى يشبهه في منظره باعة الروبابكيا ؟.
ـ أنا ؟.
ـ هل كان ثمة موعد سابق بينكما ؟.
ـ سوف ...
ـ وبعبارة أخرى : كنت تعلم انه آت ومن اجله هو ...
ثم تحولت الى ...
ـ ان ما يبعث في نفسي الضيق والاشمئزاز هو افتقاره الى الصدق والصراحة ، واعتياده التلاعب والكذب ، وطريقته الخبيثة في اصراره على أن يفعل ما يريد ، وانت ! انت تجلس أمامه تعضده وتؤازره !.
ـ اني لا أعضده ولا أؤازره !.
ـ ولكنك لا تؤيدني ايضا ، ولاشك أنك مسرور لذلك !.
لا ، لا ! واذا شئت الصدق فأنا الومكما معا في قرارة نفسي ، وخاصة والدتك لأنها بالغة الرشد .

لقد تناست أو نسيت أيام أن كانت هى فى مثل عمرك ، لكنى لم انسه ، وذلك هو الفارق بيننا ! فقد اقسمت يمينا لا احنث فيه بينى وبين نفسى الا انسى ، ولقد بذلت جهدى حتى الآن فى أن احافظ على قسمى .

انه كذاب ، مخادع ، يروغ من بين اصابعك ، كما تروغ السحالى ، ومع ذلك اراك تبدو هادئا ناعم البال ، ترمقه فى رضا واستحسان .

ووالدتك تخلط بين الموافقة أو الرضا ، وبين الفهم او الادراك او العفو ..

وربما كانت هى أيام شبابها كذابة مخادعة ، حتى لو كانت قد كفت الآن عن الكذب والخداع .. تماما كما كذبت انا ، وكما يكذب بعض الفتيان ايضا ، ويجدون انفسهم مرغمين على الكذب ، لان الآباء يفرضون عليهم قائمة طويلة من المحرمات !.

كثير مما تهفو اليه قلوبهم ممنوع منعا باتا ، وكلمة (لا) الناهية تبدأ كل جملة نوجهها اليهم .. ونحن المسئولون عن انحرافهم وخداعهم لنا وكذبهم علينا ..

ومع ذلك فالطفولة تمقت الخداع والكذب اكثر منا نحن الكبار ، وهم يستاءون فى أعماقهم من ارغامنا لهم على الكذب مدنسين طهارتهم التى خلقوا عليها حتى لا نفسد عليهم متعهم البريئة ! .

وختاما اقول لك فى هدوء وحب وحنان !

طابت ليلتك يا ولدى .

« تمت »



الدار القومية للطباعة والنشر

وزارة الثقافة والارشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر















تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر










القاهرة

مركز عالمى للإشعاع الثقافى
كتاب كل ست ساعات



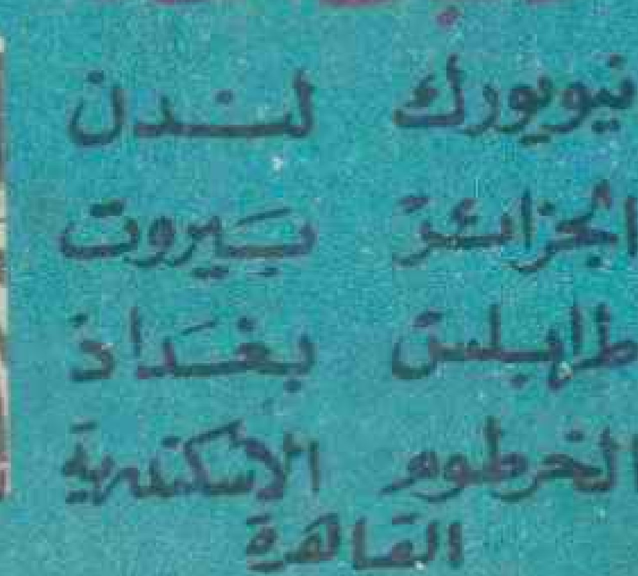















مكتبات الدار

نيويورك — لندن
الجزائر — بيروت
طرابلس — بغداد
الخرطوم — الإسكندرية
القاهرة